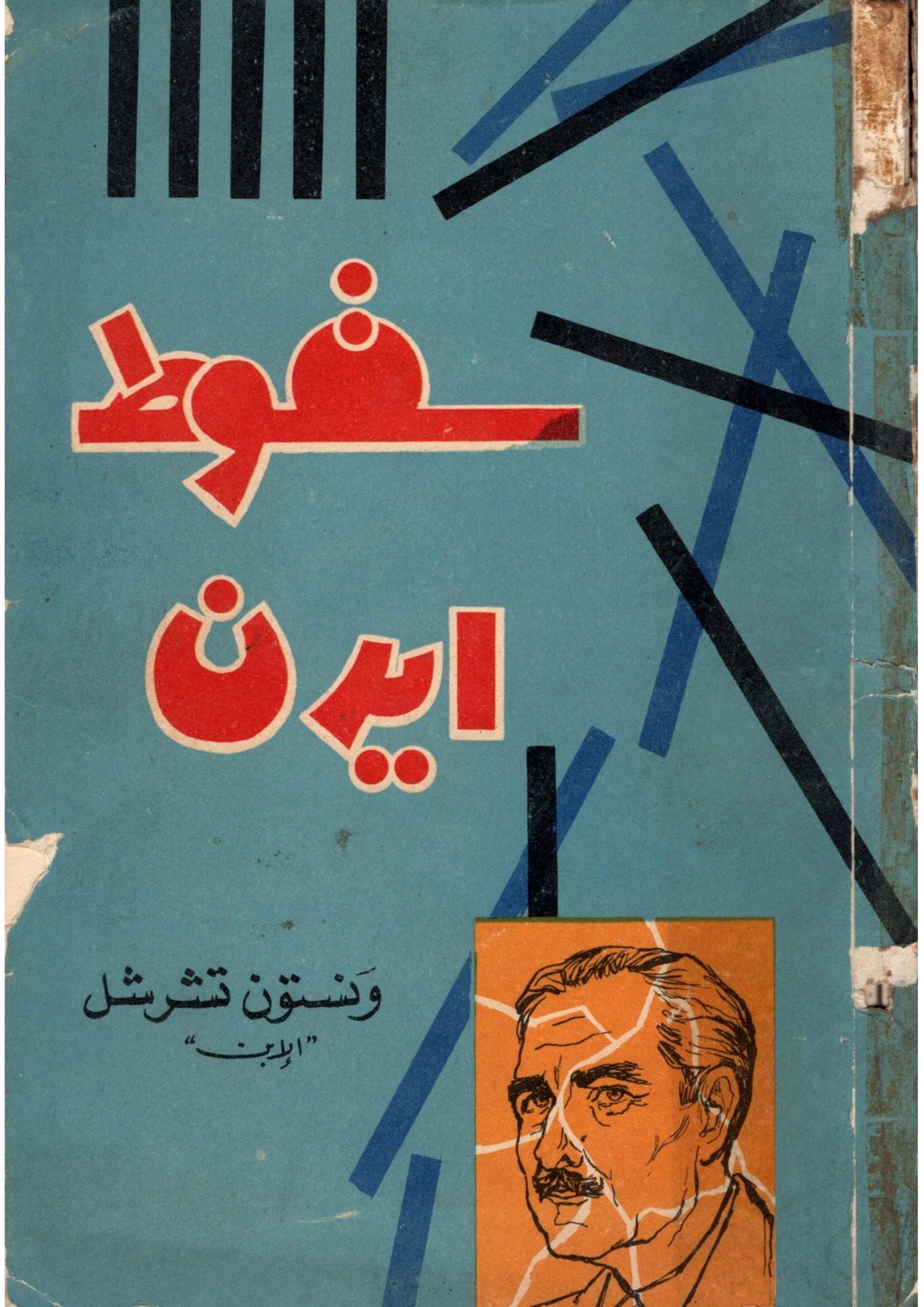
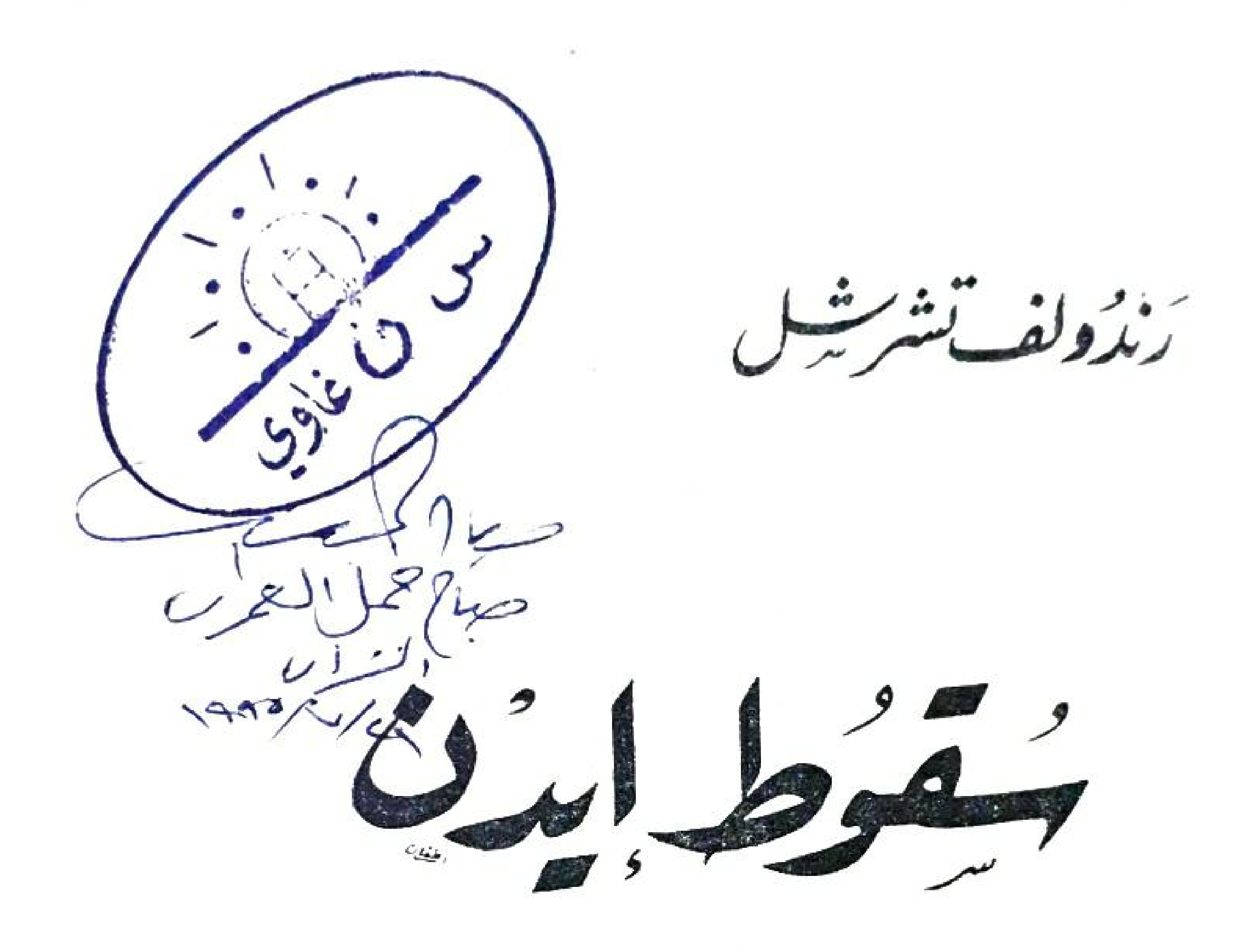


سقوط
ايدن
وَنستون تشرشل
"الإبن"





سقوط ايدن



رندولف تشرشل

سقوط إيدن

مع مقدمة بقلم
الزعيم العمالي اتلي

نقله الى العربية
لجنة من الاساتذة الجامعيين

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

الطبعة الاولى

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٩

ايدن .. هل كان ضعيفاً ؟

يقول لنا السيد رندولف تشرشل بأنه قرر وضع كتاب عن انتوني ايدن قبيل تأميم قناة السويس جاعلاً من حياته قصة نجاح بسيطة. إلا انه سرعان ما انقلبت بعد ذلك حياة هذا الرجل الى مأساة عاتية اثر قيام السياسي الموفق بمغامرة قناة السويس التي ادت لمرضه وانسحابه بالتالي من العمل .

ويقول لنا تشرشل بأن حملة قناة السويس أثرت على طريقة سرده لحياة ايدن ، فهل كانت تلك القصة يا ترى تختلف لو لم تقع هذه الحادثة ؟ لا أظن ذلك ، لانه يظهر لنا بأن الكاتب قد كوّن لنفسه حتى قبل تأميم القناة بمدة طويلة رأياً راسخاً من أن طفل والده ذي العيون الزرقاء — اي السيد ايدن - لا يتمتع بالشخصية اللازمة لاحتلال المنصب الكبير الذي اتخذه لنفسه في الحكومة .

ان كتاب تشرشل عن ايدن هو مثال عن اعمال تشويه سمعة الاشخاص ، وهو ليس بدراسة وافية عن حياة انسان لان المؤلف وضعه دون القيام بأية ابحـــاث حول الموضوع ، فهو يتكلم مثـلاً ببضع صفحات فقط عن المرحلة الاولى من حياته ليذكر بأنه وسيم الطلعة وشجاع ، ويشير بأنه لم يكن لديه أية خصال حسنة اخرى .

ويضرب لنا مثلاً عن شخصية ايدن فيذكر اول خطاب ألقاه في مجلس العموم قائلاً بأنه خطاب قوي لأن السيد ايدن كتبه بنفسه وذلك بخلاف الخطب التي اخذ يلقيها بعد ذلك والتي كان يدع الغير يكتبونها له ، فأتت جافة مملة لا جديد فيها .

وينتقل المؤلف بعد ذلك ليتكلم لنا عن نقائص ايدن بتلذذ وتشف لا يضاهى ، خاصة في المقطع الذي يقول فيه بأن ايدن ترقى في مناصب الدولة لخنوعه للسيد بالدوين ، احد رؤساء الوزارة السابقين .

ويحاول رندولف تشرشل اتهام انطوني ايدن بالموافقة على سياسة التخاذل التي اتخذها تشمبرلن تجاه هتلر قبـــل الحرب ، والبرهان الذي يعطيه على ذلك هو التباطؤ في استقالته مـــن وزارة تشمبرلن . ويقول لنا بأن والده ونستون تشرشل استبقى ايدن في الوزارة اثر نجاح زيارته الى القاهرة سنة ١٩٤٠ ظناً منه بأن هذا الرجل اكبر مما هو عليه بالحقيقة .

لكن ذلك ليس بصحيح لأن ونستون تشرشل رشح ايدن فيما بعد لخلافته وقبل الحزب بذلك .

وينتقل رندولف للكلام عن مدة حكم انطوني ايدن القصيرة الأمد ، فيهاجمه اولاً لعدم تعديله وزارة الحزب المحافظ مما يجعلنا نظن بأن وزارة تشرشل السابقة كانت بنظر ابنه خليطاً غير متناسب وانه كان على ايدن استشارة مؤلفنا هذا حول تعديلها ، كما انه من الشيق لنا السماع من هذا المؤلف المحافظ ان الاوضاع الاقتصادية في بريطانيا تزداد سوءاً منذ اربع سنين اذ ان ذلك مغاير تماماً لما يقوله لنا أعضاء حزبه .

أما من ناحية اقالة غلوب باشا المعروف بأبي حنيك ، في الاردن ، فيعتقد المؤلف بأنه كان لزاماً على ايدن مجابهتها بالكثير من الحزم على الرغم من أن غلوب نفسه نصح بالاعتدال .

وينتهي الكتاب بتحليل حملة قناة السويس ، واني لأشعر هنا بأن المؤلف على حق في انتقاده أعمال الحكومة وسياستها ، كما قيل لي بأن وصفه لدقائق امور الحملة صحيح الى حد بعيد ، لكنني لم اتمكن للآن من تفهم الاسباب التي حدت بالسيد ايدن لاتباع هذه السياسة المغايرة لجميع الاسس التي بنى عليها سمعته السياسية. والسيد تشرشل مع الاسف لا يفسر لي ذلك وان كان وصفه لتلك السياسة دقيقاً .

قال المؤلف في سياق عرضه للاحداث قبل الحرب مباشرة ان الوزارة البريطانية كلها كانت مسؤولة عن سير الامور آنذاك ، اي ان ايدن اشترك في المسؤولية مع تشمبرلن ويسمون وغيرهما في الاخطاء التي وقعت ، وعليه فان السيد ما كميلان وغيره

مسؤولون أيضاً مع ايدن بالنسبة لحملة قناة السويس ، إلا ان ونستون تشرشل لا يقبل بذلك وبالفعل فقد رشح نفسه للانتخابات النيابية كنصير مخلص للسيد مكميلان .

آتلي

« جريدة الاوبزرفر »

ايدن .. ارتفاعه وسقوطه

ارتقى ايدن « سلم » حياته السياسية درجة درجة ، ونـدر أن قام بمجازفة ما ، ولكنه تميز منـذ صغره بأنه ذو مستقبل مرموق ، واكتسب ثقة رؤسائه بطاعته ومسايرته لهم .

انتخب في سنة ١٩٢٣ نائبـاً في مجلس العموم البريطاني ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، ولم يلبث أن أصبح السكرتير البرلماني الخاص للسير اوستين تشامبرلن – الذي كان وزيراً للخارجية البريطانية آنئذ في وزارة المستر « بولدوين » المحافظـة . وكان هـذا المنصب السياسي الذي تولاه لأول مرة ، ذا تأثير كبير في حياتـه ، فباستثناء فـترة قصيرة من الوقت ، تولى خلالها وزارة المستعمرات ، ووزارة الحربيـة في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ فقد انحصر اهتمام ايـدن ونشاطه كلية في وزارة الخارجية . وتولى ايـدن في بادىء الامر منصب وكيل وزارة الخارجية ثم منصب وزير « شئون عصبة الامم » وبعدئذ اصبح وزيراً للخارجية عام ١٩٣٥ ، اثر طرد « السير صامويل هور » من هذا المنصب . وكان ايدن في الثامنة والثلاثين من عمره

في ذلك الحين .

ولدى تسلمه منصب وزارة الخارجية، كان ايدن قد اكتسب اعجاب الجماهير وتعلقهم بشخصه، لملامحه الوسيمة وابتسامته الساحرة وهندامه الانيق، كما ان تعلقه الواضح بقضية «عصبة الامم» أكسبه سمعة طيبة جداً بين الشعب، بأحزابه المختلفة المحافظين والعمال والاحرار. فقد بدا واضحاً ان نجماً جديداً قد ولد في عالم السياسة - نجماً لامعاً براقاً .

وكان المستر بولدوين رئيس الوزارة البريطانية المحافظة، قد كسب المعركة الانتخابية عام ١٩٣٥، على أساس تأييد «عصبة الامم» ومعارضة سياسة موسوليني الاستعمارية التوسعية . وكان موسوليني يشن آنئذ حربه الاستعمارية العدوانية في الحبشة .

وعندما حاول وزير الخارجية البريطانية السير صامويل هور، اتباع سياسة الترضية والتهدئة مع الطليان، هوى بسرعة من منصبه وتولى ايدن وزارة الخارجية البريطانية . وكان تعيين بولدوين رئيس الوزراء لإيدن في هذا المركز يعني اعطاء الضمانة للامة بأنه متمسك بسياسته التي كسب المعركة الانتخابية على اساسها .

واستقال بولدوين من رئاسة الوزارة وتولى الرئاسة المستر «نيفيل تشامبرلن» الذي اخافته نذر الحرب التي كانت تتجمع في الأفق، واقتنع تشامبرلن تماماً بأنه يستطيع التفاوض للتوصل الى تسوية عملية سلمية للمشاكل المتنازع عليها مع موسوليني وهتلر .

وشجع تشامبرلن وزير خارجيته ايدن على البدء في المفاوضات في لندن ، مع الكونت غراندي السفير الطلياني ، وعندما ظن رئيس الوزراء ان ايدن كان يعقد المفاوضات بشكل لا ضرورة له ، نقل المفاوضات من وزارة الخارجية الى (١٠ داوننغ ستريت) مقر رئاسة الوزراء ، وقد غضب ايدن لهذا العمل ، وقدم استقالته من الوزارة .

وكان واضحاً في ذلك الحين ان هذا هو السبب الحقيقي لاستقالة ايدن ، ولكن تبين فيما بعد انه كانت هناك اسباب اخرى ، فقبل ثلاثة اسابيع من الحادث ، وبينما كان ايدن مسافراً خارج بريطانيا ، ابرق الرئيس روزفلت الاميركي يقترح على الحكومة البريطانية ان يتولى هو الدعوة الى مؤتمر ينعقد في واشنطن للعمل على تخفيف حدة التوتر في اوربا . وكان رد تشامبرلن على هذه البرقية « ناشفاً » ولم يشاور وزارة الخارجية قبل ان يبعث رده ، وعندما عاد ايدن من اوروبا ، أقنع تشامبرلن ومجلس الوزراء بارسال رسالة « ودية » الى الرئيس الاميركي . ولكن الرسالة جاءت متأخرة فقد شعر روزفلت بأن رد تشامبرلن الاول كان صفعة بالنسبة اليه ، وبقي متأثراً من ذلك .

فالعلاقات ، اذن بين تشامبرلن وبين ايدن ، لم تكن على ما يرام ، عندما حصل النزاع بينهما بخصوص المفاوضات مع ايطاليا ، وقد سر تشامبرلن في الواقع لترك ايدن منصبه . وزادت هذه الاستقالة من شهرة ايدن ، وتعلق الناس به ، فقد اعجبت الامة بعمل هذا الشاب الناشيء ، الذي قامر بمستقبله السياسي ، وتخلى

عن منصبه الرفيع ، وهو لا يزال في اول طريق مجده ، من اجل حفاظه على مبدأه .

زوجة السياسي البريطاني الحسناء تنقذه من الموت

وعندما استقال ايدن من الوزارة ، لم ينضم الى مجموعة النواب القوية التي كانت تتألف من ٦٠ أو ٧٠ نائباً التفوا حول المستر ونستون تشرتشل ، الذي كان يدعو الى قضية الامن الجماعي ، والتسلح لمجابهة تهديد هتلر المتزايد ، وانما انضم ، بناء على نصيحة اللورد بولدوين ، الى مجموعة صغيرة ، كان يرئسها الكابتين سدني هربرت ، والتي كان من بين اعضائها السياسي المحنك ليوبولد أمري .

وقام هتلر بغزو النمسا ، بعد بضعة أسابيع من ترك ايدن الوزارة ، ولم يؤيد ايدن تشرشل في رأيه بالاحتجاج على هذا العمل ، واعتباره عملاً همجياً غير مشروع . ومع ذلك ، وحين طلب نيفيل تشامبرلن من تشرشل الاشتراك في الوزارة عندما نشبت الحرب عام ١٩٣٩ ، أصر تشرشل على اشراك ايدن في الحكومة ، وتولى ايدن وزارة المستعمرات .

وبعد تسعة أشهر ، سقط تشامبرلن ، وتولى ونستون تشرشل رئاسة الوزراء وانتقل ايدن الى وزارة الحربية ، وبعد بضعة أشهر ، عين اللورد هاليفاكس وزير الخارجية في منصب السفير البريطاني في واشنطون ، وعاد ايدن مرة ثانية الى منصب وزارة الخارجية .

وفي عام ١٩٤٣، عندما شغر منصب «نائب الملك» في الهند، عرضت هذه الوظيفة البراقة على ايدن، ولكنه رفضها بعد روية وتفكير، فقد رأى ان قبوله هذا المنصب، يقضي على مستقبله وطموحه بالوصول الى مركز رئاسة الوزارة، لأن من يتولى هذا المركز عليه ان يقبل بلقب اللوردية، هذا اللقب الذي يحول بين صاحبه وبين منصب رئاسة الوزراء، حسب التقاليد البريطانية المرعية الآن.

ولقد اجمع كل من اتيحت لهم الفرصة لدراسة ايدن في عمله، على مقدرته الفائقة في المفاوضات الديبلوماسية، وقد اظهر هذه الموهبة التي كان يتحلى بها، في المؤتمرات الدولية الكثيرة، التي التأمت اثناء الحرب. وكان الرئيس الامريكي ولسون قد دعا في مبادئه الاربعة عشر المشهورة، التي اعلنها عقب الحرب العالمية الاولى، الى اتباع سياسة «المواثيق العلنية ونبذ الاتفاقات السرية»، ولكن ايدن كان يدعو في سياسته الى الاتفاقات المكشوفة، التي يتم الوصول اليها بالمفاوضات السرية. وقد اقتنعت وزارة الخارجية الامريكية اثناء الحرب، باتباع هذا النمط من السياسة.

ولقد تمت موهبة ايدن الديبلوماسية بالمران والممارسة، ولكنها وصلت الى الذروة في مؤتمر جنيف، الذي انعقد عام ١٩٥٥، لبحث قضية الهند الصينية والذي أسفر عن توقيع وقف اطلاق النار. وفي اثناء انعقاد المؤتمر، غضب المستر دالاس وزير الخارجية الاميركية، وطار عائداً الى بلاده، كما ان لانيال رئيس الوزارة الفرنسية سقط في تلك الاثناء

وكان على ايدن ان يتولى لوحده ولعشرة ايام عصيبة ، مهمة الدفاع عن المصالح الغربية ، امام مولوتوف الثعلب الروسي ، وشوان لاي زعيم الصين الشيوعية ، حتى وصل رئيس الوزارة الفرنسية الجديدة - منديس فرانس - وامكن الوصول الى الاتفاقية ، وكان هذا نصراً ديبلوماسياً رائعاً لايدن ، ولولا توقيع الاتفاقية ، لمني الفرنسيون في الهند الصينية بهزيمة نكرا تفوق تلك التي حلت بالجيش البريطاني في « دنكرك» عام ١٩٤٠

وظهرت مواهب ايدن السياسية كذلك ، عندما نجح في توسيع نطاق معاهدة بروكسل . ولقد منحته ملكة بريطانيا رتبة « الفروسية » على هذا العمل ، وصار يتمتع بلقب « سير » .

وكانت المفاوضات المضنية في جنيف والتي تكللت بالنجاح ، من الاعمال المجيدة التي حققها ايدن ، وخصوصاً اذا تذكرنا ان ايدن كان لا يزال في دور النقاهة من مرض عضال ، أبل منه مؤخراً بعد سلسلة من العمليات الخطيرة . ويعود الفضل في شفائه ونجاته من الموت الى زوجته الصغيرة الحسناء .

نجاح ايدن في المحافظة على « سرية » حياته

وفي السنة التي سبقت انعقاد مؤتمر جنيف ، اجريت لايدن عملية باطنية في لندن ، ولكنها لم تكن ناجحة . وأشرف ايدن على موت محقق لولا أن انقذته زوجته الصغيرة ، فقد اكتشفت ان جراحاً أمريكياً هو الدكتور « كاتل» قد اجرى هذه العملية بنجاح مائة مرة تقريباً ، فطارت بكل همة ونشاط بزوجها الى

اميركا حيث اجريت له العملية في « بوسطن » بنجاح كبير ، وكانت صحته من قبل سيئة ، ولكن يبدو ان ايدن بزواجه وبالعملية التي أجراها ، قد دخل في دور جديد من أدوار حياته ، كان يتمتع فيه بالصحة والعافية ـ الامر الذي لم يذق طعمه ، لسنوات طويلة من قبل .

وقد خدم ايدن في الجيش برتبة ضابط ، في فيلق البنادق الملكي ، أثناء الحرب العالمية الاولى ، ونال وسام « الصليب الحربي » لشجاعته التي ابداها في الحرب ، وقد عرف ايدن بشجاعته وعدم مبالاته بالاخطار .

فقبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، تم بناء جناح على سطح مبنى وزارة الخارجية في لندن ، لاستعمال اللورد هاليفاكس ، وهذا الجناح من اكثر الامكنة (المكشوفة) في لندن ـ وكان ايدن ينام في هذا الجناح في أحلك الايام التي مرت بلندن في الحرب ، عندما كانت عرضة للغارات الجوية المخيفة .

ولقد ترك ايدن كلية « ايتون » الشهيرة ليلتحق بالجيش ، وبعد الحرب الاولى ، وعندما كان ايدن رجلا ناضجاً اكتسب خبرة الحرب ، التحق بجامعة اكسفورد . وقد حكم عليه معاصروه من زملائه في الدراسة ، بأنه كان الى حد ما ، محباً للعزلة وكان يقضي أيامه مع زمرة قليلة من الاصدقاء لهم ميول فنية ، ولم يكن نشيطاً في ميدان الرياضة ، فيما عدا لعبة التنس ، وانما كان يكرس معظم وقته للدراسة . وقد اختار مدرسة اللغات الشرقية ، ونال شهادته فيها ـ البكالوريوس ـ بدرجة شرف من المرتبة

الاولى – وقد شملت دراسته اللغات العربية والفارسية والسنسكريتية .

ولقد نجح ايدن في المحافظة على « سرية » حياته الخاصة ، ولقد رزق من زوجته الاولى بولدين ، كان دائماً حانياً عليهما ، وقد قتل ابنه الاكبر ، سيمون أثناء خدمته في سلاح الجو الملكي في الحرب العالمية الثانية ، ولا يزال ابنه الثاني ، نيكولاس ، على قيد الحياة ، ولكنه ليس لديه اي طموح سياسي .

وانصرف ايدن في شبابه كلية الى عمله السياسي الذي اختاره ، وكان يعمل بجد بالغ ، ندر ان قام به اي سياسي آخر . وكان يقضي معظم ساعات راحته وفراغه في العمل في حديقته ، وكان يعرف الكثير عن الازهار ؛ وكان اشتغال ايدن في الحديقة يريح ذهنه من عناء التفكير في السياسة .

وكان ايدن كثير المطالعة، ويحفظ الكثير من شعر شكسبير . وقد قيل عنه «ان اصدقاءه قليلون ، وليس له اعداء» وفي هذا القول دلالته ، فلم يكن ايدن «رجل اندية» على حد تعبير الدكتور جونسون، اديب بريطانيا الكبير في القرن الثامن عشر . وندر ان شوهد ايدن في غرفة التدخين في مجلس العموم ، وانما كان يفضل دائماً صحبة الشابات والشبان من غير أبناء جيله على اقرانه وانداده .

وكان زواجه الاخير بالمس «كلاريسا تشرشل» نقطة تحول في تطور شخصيته ، ولقد قال بعض عارفيه « انه اصبح بعد ذلك سياسياً واثقاً من نفسه، بعد ان كان رجلا غير متأكد من نفسه» .

وبعد، فهذا ما كنت قد كتبته عن ايدن ، لدى توليه منصب رئاسة الوزراء عام ١٩٥٥ ، في سن مبكرة بالنسبة لمعظم من تولى هذا المنصب قبله - فتشامبرلن كان عمره ٦٨ عاماً عندما تولى الرئاسة ، وكان تشرشل في السادسة والستين عندما تولاها. ولقد كان الكثيرون يتأملون ان يكون ايدن ناجحاً في توليه منصب رئاسة الوزراء فهل تحقق أملهم يا ترى ؟

سأحاول في الفصول التالية ان استعرض بشيء من التفصيل السنوات التي تولى ايدن فيها رئاسة الوزارة ، لنرى فيما اذا كان ناجحاً ام فاشلا .

تعلق ايدن بتربيته بعد ان فقد حنان امه

ولد انتوني ايدن في ١٢ حزيران سنة ١٨٩٧ في « وندل ستون » المقر الرئيسي لعائلة ايدن لاكثر من ٣٠٠ سنة ، وكان ترتيبه الرابع بين اخوته ، اذ كانت تكبره اخته مارجوري ، بعشر سنوات ، واخوان جون (٨ سنوات) وتيموثي (٤ سنوات). ولقد ولد له اخ خامس ، نيكولاس ، بعد ثلاث سنوات . ومات اخواه ، الاكبر جون والاصغر نيكولاس ، في الحرب العالمية الاولى . فقد قتل جون في الميدان في فرنسا عام ١٩١٤ ، بينما مات نيكولاس في معركة جوتلاند البحرية عام ١٩١٦ .

وقد خدم انتوني في الجيش في الحرب الاولى برتبة ضابط ، وخرج من الحرب هو واخوه تيموثي سالمين .

وقضى انتوني ايدن واخوته أيام صباه في وندل ستون ، في كنف والده السير وليام ايدن في بيت كبير ، وحياة غنية رغدة. ويحلو لكثير ممن كتبوا عن تاريخ حياة ايدن ان يذكروا تأثير والده ووالدته ومربيته على نشأته ، وانا في هذا الكتاب مهتم بالكتابة عن حياة ايدن العامة كسياسي شهير ، اكثر من اهتمامي بحياته الخاصة . ولكن ، لا بد لي من الاشارة هنا، الى ان ايدن الصغير نشأ في محيط لم يكن يختلف كثيراً عن حياة الشباب الآخرين من طبقته، في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى. فقد كان انتوني كبقية اخوته، يرهب والده ، وبالرغم من انه كان يحله ويعجب به ، الا انه من الواضح ان « الكلفة » لم ترتفع ابداً في العلاقة بينه وبين ابيه ، كما يحدث عادة بين الابناء والآباء .

وكانت والدة انتوني ايدن ، الليدي ايدن ، على حظ كبير جداً من الجمال ، ولم تكن تظهر نحو ابنها انتوني ، نفس الحب والعاطفة التي كانت تظهرها نحو أخيه الاكبر جون ، والاصغر نيكولاس ، وأصدقاء العائلة مقتنعون ان انتوني كان يشعر بمضاضة وألم في قرارة نفسه ، لهذا التفريق في المعاملة ، وان ذلك اثر في حياته الخاصة والعامة فيما بعد ، فقد كان دائما يتكل على نفسه ، وكثير الاعتداد والثقة بنفسه . ورغم ان الحياة التي قضاها أنتوني في وندل ستون ، كانت في الظاهر حياة متنوعة مرحة ، الا انه مما لا ريب فيه ، ان عوامل خفية داخلية ، كانت تعمل في شخصية الصبي الناشيء ، انتوني وكان لها نتائج في حياته المستقبلة .

اما والده السير وليام ايدن ، فقد كان من اكثر الشخصيات التي انتجتها عائلة ايدن طرافة وشذوذاً، وقد كتب الكثير عنه وعن مواهبه ، كما كتب الكثير عن اعماله الجنونية ، ومقدرته في الصيد ، وذوقـه الفني ، ومهارته الفائقة في رسم اللوحات بالالوان المائية . وحبه للجدل والمناقشة ، حتى في أتفه الامور . وقد وضع عنه ابنه ، السير تيموثي ايدن كتاباً ، ذكر فيه أمثلة وافية علىهذه الصفات التيتميز بها والده . وقد جمع ايدن الاب، الى الصفات التي ذكرناها ، ميزة اخرى عرفت عنه ، وهيروح فكهة مرحة ، تحب النكتة ، ولا توفرهـا في وقتها . ولكنه في علاقته مع أبنائه ، كان دائماً متكلفاً ، وظل أبناؤه في الواقـع بعيدين عنه ، لا يفهمونه ، ولا يفهمهم ، شأن العلاقات بين أبناء وآباء الطبقة الارستقراطية في ذلك الحين ، هذا على الرغم من ان ابناء السير وليام ايدن كانوا ينظرون اليه نظرة اجلال واكبار .

وكانت عاطفة انتوني نحو مربيته المس بروم هيد ، قويةجداً، فقد كان قليلاً ما يرى والديه،ولذلك كان يأنس الىالمس بروم هيد كثيراً ، ولعله وجد في عطفها وحنانهـا تعويضاً عن الحنان والعطف الذي كان ينتظره من والدته ، ولكنه افتقده .

وفي عام ١٩٠٧ ، وعندما كان في العاشرة من عمره ، دخل انتوني ايدن مدرسة « ساندرويد » الاعـدادية الشهيرة ، قرب بلدة «كوبنهام» في «ساري» وكانت هذه المدرسة مدرسة للطبقة الارستقراطية ، ومن جملة من درس فيها فيما بعد السير غلادوين جيب والملك بيتر مالك يوغوسلافيـا السابق ، ورندولف

تشرتشل ، واضع هذا الكتاب . ونال ايدن في سنته الدراسية الاولى جائزة لتفوقه في اللغة الفرنسية . كما انه نال عام ١٩١٠ جائزة اخرى لتفوقه في التاريخ. ويبدو انه لم يكن بارزاً في حقل الالعاب الرياضية ، وفي الاشتراك في مجلة المدرسة . وقد ذكر في سجل المدرسة ان عدة طلاب جدد قد تعلموا السباحة ، ولم يبق في المدرسة من لا يعرف السباحة سوى اربعة صبيان ، بينهم ايدن . ولكنه ، على اي حال ، عرف انه سباح ماهر في شبابه .

وفي كانون الثاني عام ١٩١١ ، التحق انتوني ايدن بكلية ايتون ، حيث قضى اربع سنين ، لم يكن خلالها من الطلاب البارزين في المدرسة او في الالعاب. وقد قال عنه احد زملائه ، البريغادير تشيني ، مدير البوليس في باكنجهام شاير ، انه « كان دائماً ولداً حسن الهندام جميل الشكل في ايتون » ، كما ان احد اساتذته قال عنه : « انه كان محبوباً ومحترماً من قبل الجميع .

وتطوع ايدن في الجيش ، كمعظم انداده في ايتون ، عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره في ايلول عام ١٩١٥ .

من اكسفورد لمجلس العموم

تطوع ايدن في الجيش عام ١٩١٥ ،برتبة ضابط في الكتيبة ٢١ من فيلق البنادق الملكي ، وعبرت الكتيبة المانش الى فرنسا في أيار عام ١٩١٦ ،حيث اشتركت في العمليات الحربية ،ونالت سمعة عالية لمقدرتها في القتال .

وقد خدم ايدن في الجيش حوالى ١٨ شهراً ، قام خلالها أثناء احدى الهجمات التي شنتها كتيبته على العدو بعمل جريء ، نال من اجله وسام «الصليب الحربي» اذ انه تمكن من انقاذ حياة «شاويش» الكتيبة ، الذي اصيب بجراح بليغة في فخذه .

وعندما سرح ايدن من الخدمة عام ١٩١٩ ، لم يكن متأكداً من مستقبله بعد ، ويرى البعض انه أخذ يفكر في ذلك الحين بالالتحاق بالسلك الديبلوماسي ، ولكنه ، بناء على نصيحة او إلحاح والدته ، ذهب الى جامعة اكسفورد ، وبدأ يدرس في «مدرسة اللغات الشرقية» لنيل شهادة البكالوريوس بدرجة شرف ، ودرس في المدرسة اللغتين العربية والفارسية . وهنا يختلف مؤرخو حياته في تحديد الاسباب التي حدت بإيدن ان يختار دراسة

اللغات الشرقية . فيرى بعضهم ان السير جورج كارك نصحه باختيار هذه الدراسة ، لان ايدن كان يبدي اهتمامه بشؤون الشرق الادنى ، ولكننا لا نعرف من أين جاءه هذا الاهتمام . ويرى آخرون انايدن كا يرغب في العمل في الجهاز الديبلوماسي ، ولذلك رأى ان دراسة لغات الشرق الاوسط مهمة لتأهيله لهذا العمل . ويذكر بعض الكتاب ، ان ايدن أسف فيما بعد ، لأنه لم يختر دراسة اللغة الروسية . ويقول كتاب آخرون ان اهتمام ايدن بشؤون الشرق الادنى ، كان نتيجة مرافقته للسير مارك سايكس (بطل المعاهدة السرية المعروفة باسم معاهدة سايكس - بيكو ، التي اتفقت بموجبها انكلترا وفرنسا على تقسيم الهلال الخصيب فيما بينهما عام ١٩١٦) في البعثة التي قام بها خلال الحرب الى منطقة الجزيرة الفراتية .

وكان ايدن في دراسته في الجامعة جدياً ، ونال شهادة البكالوريوس بشرف ، من المرتبة الاولى عام ١٩٢٢ ، ويتفق جميع من كتب عنه أن حياته في الجامعة ، كانت حياة عزلة ، فنادراً ما اشترك في نواحي النشاط الخارجي لكليته او للجامعة ، كما انه لم يشترك في «رابطة» الجامعة او في اي من الجمعيات الاخرى فيها ، الامر الذي يدعو الى الاستغراب ، بالنسبة لشخص كان ينوي خوض المعترك السياسي فيما بعد .

وكان اصدقاء ايدن في الجامعة قليلين ، من بينهم اللورد ديفيد سيسيل والمستر غاثورن هاردي ، وقد شكل الثلاثة عام ١٩١٠ «جمعية اوفيزي» للعناية بشؤون الرسم والرسامين ، فقد عرف

ايدن بميوله الفنية . وذكر بعض مؤرخي حياته انه كان يقضي العطل المدرسية قرب «لاروشيل» في فرنسا مع قسيس فرنسي بروتستانتي ، لكي تتحسن لغته الفرنسية ، كما انه قام بسياحة في اوروبا وآسيا الصغرى مع اللورد ديفيد سيسيل وآخرين .

وفي صيف عام ١٩٢٢ ، تخرج ايدن من جامعة اكسفورد ، وفي تشرين الثاني من نفس السنة ، رأيناه يخوض معركة الانتخابات البرلمانية الاولى .

ففي السنوات التي تلت الحرب العالمية الاولى حصل انقسام في صفوف حزب المحافظين الحاكم في انجلترا في ذلك الوقت ، واستقال «لويد جورج» من رئاسة الوزارة وشكل «بونارلو» الوزارة الجديدة ، وقام بونارلو بحل البرلمان ، لاجراء انتخابات جديدة . ورشح ايدن نفسه لعضوية مجلس العموم في هذه الانتخابات في صفوف المحافظين ، عن دائرة انتخابية كان يسيطر فيها العمال ، ولكنه لم ينجح في الانتخابات ، وفاز النائب العمالي في الدائرة ، ومع ذلك فقد نال ايدن أصواتاً لها قيمتها .

ولم يطل عهد وزارة «لو» ، وتولى الرئاسة بولدوين عام ١٩٢٣ الذي رأى اتباع سياسة معينة في الضرائب والجمارك ، وقام في اواخر سنة ١٩٢٣ بحل البرلمان ، لاجراء انتخابات جديدة . وفاز ايدن هذه المرة في الانتخابات وصار عضواً في مجلس العموم البريطاني ، ولكن حزب المحافظين مني بهزيمة كبيرة في تلك الانتخابات ، فكان لهم ٣٤٤ مقعداً في المجلس السابق ، بينما حصلوا في هذه الانتخابات على ٢٥٨ مقعداً فقط ، ولكن الحزب

مع ذلك ، كان لا يزال يشكل حـزب الاغلبية في البرلمان ، اذ كان للعمال ١٩١ مقعداً في المجلس ، وللاحرار ١٥٩ مقعداً ، ولم ينل بولدوين ثقة المجلس ، فقدم استقالته واستدعى الملك المستر «رمزي ماكدونالد» زعيم العمال وعهد اليه بتشكيل حكومـة جديدة ففعل .

وكانت الخطبة الاولى التي القاها ايـــدن في مجلس العموم البريطاني تتعلق بموضوع تقوية سلاح بريطانيا الجوي ، لتتمكن من حماية نفسها من الهجمات الجوية التي يمكن أن يشنهـــا عليها العدو . وكان خطابه الثالث في البرلمان ـ اول نيسان عام ١٩٢٤ ـ يتعلق بمعاهدة «لوزان» التي وقعت مع تركيا ، وقد امتدح ايدن فيه توقيع المعاهدة ودعا الى الدخول في عهد جديد من العلاقات الودية مع الدولة التركية الحديثة .

« رسالة حمراء » دعمت المحافظين في الانتخابات

ولم يطل عمر الوزارة العماليـــة التي كان يرئسها ماكدونالد ، فقد كان حزب العمال بحاجة الى سياسيين ذوي خـــبرة ، وقد ارتكبت الحكومة ، والنائب العام السير باتريك هيستنغز ، غلطة كبيرة ، جعلتها تفقد تأييـــد كتلة المستر اسكويث والنـواب الاحرار في المجلس ، وقد أدى ذلـك الى سقوطها . فقد اعتقل المستر كامبل ، محرر صحيفة « العمال » الاسبوعيـة الشيوعية ، ووجهت اليه تهمة محاولة القيام بثورة . وتحت ضغط نواب الحكومة في المجلس ، وبناء على نصيحة ماكدونالد رئيس الوزراء ، سحب

النائب العام الاتهـــام ، فطلب نواب المحافظين ونواب الاحرار ، طرح الثقة بالحكومة في المجلس ، فحل ماكدونالد البرلمان ، واجريت انتخابات عامة جديدة .

وخاض ايدن معركة الانتخابات للمرة الثانيـــة عن دائرة ورويك ولمنغجتون الانتخابية ، وفاز فيها على منافسه ، مرشح حزب الاحرار . ومن الاسباب الهامة التي جعلت المحافظـــين يفوزون فوزاً كاسحاً في هذه الانتحابات ،ان جريدة «الديلي ميل» قامت أثناء احتدام المعركة ، بنشر رسالة موجـــهة من رئيس المجلس الاعلى للشيوعية الدوليـــة ، الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني ، يدعوه فيها الى « تهييج جماهير البروليتاريا العاطلين ، على مطالبة الحكومة بتوقيـــع المعاهـــدة الانجليزية السوفياتية ، التي كانت حكومـــة العمال آنئذ تجري مفاوضات بشأنها » .

وبعد نشر هـــذه الرسالة « الحمراء » في الديلي ميل ، أصبح معروفاً للجميع ان وزارة الخارجية كانت قد حصلت على نسخة منها ، قبل تسعة أيام ، ولكن الحكومة لم تطلع الرأي العـــام عليها . فتعرضت حكومـــة العمال الى انتقاد مرير ، كما أصبحت الشكوك تحوم حول سياسة الحكومـــة بأنها – بسبب حادث الرسالة وحادثـــة كامبل – كانت واقعة تحت تأثير الاعضـــاء الشيوعيين المتسترين في حزب العمال .

وشكل « بولدوين » الوزارة الجديدة بعد الانتخابات ، وفي البرلمان الجديد ، اتسع نطاق المواضيع التي تحدث عنها ايدن ،

ففي خلال عام ١٩٢٥ ، نجده يتحدث عن بروتوكول جنيف ، وعن تخفيف أزمة البطالة ، وعن الوضع في العراق . وفي أوائل هذه السنة ، أصبح ايدن السكرتير البرلماني الخاص للمستر «غودفري لوكر لامبسون» الذي كان في ذلك الوقت وزير دولة لشؤون الداخلية . وكان هذا المركز من المراكز التي يطمح اليها النواب ، كخطوة في طريق ارتقائهم « السلم » السياسي ، رغم أن المنصب كان بدون « علاوات » اضافية ،وكان يتطلب من صاحبه (دواماً) كثيراً في المجلس . فالسكرتير البرلماني الخاص يجلس في المجلس خلف الوزير ويقوم (بمناولته) ما يحتاج اليه ، فهي وظيفة تافهة ولكنها تتيح لصاحبها فرصة الاطلاع على ادارة الدولة ، والكيفية التي تقوم بها الحكومة بحكم البلاد.

وأدرك ايدن، ككثير من أعضاء الحزب الشبان الطموحين، ان التقدم والارتقاء انما يتم بتقديم الخدمات الكثيرة للحزب وللحكومة ، وليس بفرض شخصيته وارادته على مجلس العموم. وكان بولدوين من أكثر السياسيين البريطانيين نجاحاً في تسيير دفة الحزب ، منذ عهد السير روبرت والبول ، وقد عمل على اعادة توحيد صفوف الحزب ، فضم الى وزارته اللورد بيركنهيد ، والمستر اوستين تشامبرلن ، والسير لامنج ورثنغتون ايفانس ، الذين اختلفوا معه في الماضي. ولكن الامر الذي أدهش الكثيرين كان تعيين بولدوين للمستر ونستون تشرتشل وزيرا للخزانة في الوزارة الجديدة . أما الاسباب التي جعلته يضم تشرتشل الى وزارته ، فهي كيلا يفسح المجال لتشرتشل ولويد جورج أن

يتكتلا معاً في معارضة الحكومة ، ولتطمين الناس بهذا التعيين الى انه لا يعتزم اجراء تغييرات جديدة في التعرفات الجمركية . وكان تشرشل معروفاً بمعارضته لهذه التغييرات .

ومهما يكن من أمر ، فقد عرف ايدن ان صعود السلم السياسي ، لم يكن ليتم بجدارة ومقدرة الاشخاص ، بقدر ما كان للولاء والاخلاص للحزب وللحكومة . ولذلك عمل ايدن على اظهار ولائه وطاعته للحكومة والحزب .

وبعد مدة ، تولى ايدن منصب السكرتير البرلماني الخاص للمستر تشامبرلن ، وزير الخارجية . وبتوليه هذا المركز ، يمكن القول أن نمط حياة ايدن السياسية قد تحدد ، فقد كانت مواهبه وميوله تؤهله للاشتغال في حقل السياسة الخارجية .

وقد زار ايدن في أوائل عام ١٩٢٥ حقول الزيت في ايران ، عضواً في وفد برلماني ، كما انه كان يكتب في صحيفة « اليوركشايربوست » لتأييد الحكومة .

وفي صيف عام ١٩٢٥ سافر الى استراليا ، ممثلا عن صحيفة « اليوركشايربوست » لحضور مؤتمر الصحفيين للامبراطورية البريطانية ، وقد ذهب الوفد الى استراليا بطريق كندا ، وعاد من الجهة الاخرى للعالم ، فزار بذلك نيوزيلندا وسيلان . وقد أتاحت هذه الرحلة لايدن فرصة الاطلاع على شؤون الامبراطورية البريطانية عن كثب .

أما اشتغال ايدن في منصب السكرتير البرلماني الخاص لوزير الخارجية ، فقد مكّنه من الاطلاع على الشؤون الخارجية اطلاعاً مباشراً .

ارتقاء (السلم) السياسي على ثلاث مراحل

وعندما تولى ايدن منصب السكرتير البرلماني الخاص لوزير الخارجية صار بامكانه الاطـلاع على تلغرافات الوزارة، كما تمكن من مرافقة وزير الخارجية، لحضور المؤتمرات الدولية التي عقدت في تلك الفترة. وكان ذلك بالنسبة لايدن تدريباً عملياً له قيمته الكبيرة في المستقبل، فقد حصل على خبرة قيمه، مكنته فيما بعد من اظهار مواهبه الرائعة في حقل الديبلوماسية والمفاوضات.

وانعقد في تلـك الآونة مؤتمر «لوكارنو» وكان من اهم ما تمخضت عنه نتائج هذا المؤتمر، السماح لالمانيا بالانضمام لعضوية «عصبة الامم» ويرجع الفضل في ذلك الى حد كبير، للديبلوماسية التي ابداها وزراء الخارجية الثـلاثة في المؤتمر، ستريسمان (الالماني)، وبرايان، وتشامبرلن، فقد كانت فرنسا حتى ذلك الحين، تنظر الى «العصبة» على اعتبار انها اداة فقط، للمحافظة على شروط معاهدة فرساي، وللحيلولة دون قيام المانيا بأي عمل عدواني جديد في المستقبل. اما الآن، فقـد اصبح هناك امل في ان تكون «العصبة» أداة للتقدم السلمي لجميع الاسرة الاوربية. ومهما يكن من شيء، فعندما أصبح ايدن ذا صلة وثيقة بالسياسة الخارجية البريطانية، كان كثير من الاشخاص الحسني النية، يشعرون بأن اوربا كانت مقبلة على عهد جديد، من التساهل والتسامح والتفاهم، في العلاقات بين دولها المختلفة.

واشتهر ايدن في هذه الفترة، في داخل انجلترا وفي خارجها، بحماسه وتأييده لمنظمة «عصبة الامم» الدولية ، التي كانت مدينة جنيف مقراً لها . والواقع ان ايدن قد ارتقى السلم السياسي على ثلاث مراحل : الاولى كانت عندما دخل البرلمان، والثانية ارتباطه بوزارة الخارجية ، اما الخطوة الثالثة فكانت اهتمامه وسعيه لتأييد عصبة الامم .

هذا ، وفي الوقت الذي كانت فيه الاوضاع السياسية في اوروبا تبشر بالتحسن ، تعرضت انجلترا لازمات داخلية عنيفة، كان لها تأثير كبير في سياستها . ففي عام ١٩٢٦ وقع في انجلترا الاضراب العام ، واضراب عمال الفحم. ولم يطل عهد الاضراب العام ولكن اضراب الفحم امتد سبعة شهور ، وترك نتائج سيئة جداً في البلاد ، فقد خسرت انجلترا أسواقاً خارجية ، لم تتمكن من استعادتها فيما بعد ، كما ان الاقتصاد القومي البريطاني تعرض لنكسة كبيرة ، امتد اثرها سنوات عديدة . وقد ألقى ايدن خطاباً هاماً في مجلس العموم اثناء الازمة ، عالج فيه موضوع الاضراب ، وبيّن ان اتباع هذا السلاح امر لا تستطيع ان تتحمله الصناعة الوطنية ، ودعا المجلس بأحزابه المختلفة ، الى تأليف هيئة تحكيم ، تعمل على تفادي وقوع مثل هذه الاضرابات والنكسات في المستقبل . كما ان ايدن في خطابات اخرى ، دافع عن ميثاق لوكارنو ، وبيّن ضرورة السماح لالمانيا بالانضمام لعضوية العصبة الدولية ، حتى تحتكم الدول التي كانت متعادية الى المفاوضات بدل احتكامها

الى السيف . »

واشتهر امر ايدن في المجلس، حتى انه لم يكن يفوته التحدث عن اي من المواضيع الهامة، التي كانت تجابه الحكومة والبرلمان.
ومن الطريف ان نذكر هنا، ان « ايرل ونترتون » في كتاب وضعه عن تلك الفترة، استرعى انتباهه نشاط ثلاثة اشخاص في المجلس، هم الكابتين كروكشانك، والكابتين ماكميلان، والكابتين ايدن – وثلاثتهم خدموا في الحرب العالمية الاولى – وتنبأ « الايرل » بمستقبل كبير لهؤلاء النواب الشباب الثلاثة.
وقد صدقت نبوءة الايرل، فقد تولى كل من ايدن وماكميلان منصب رئاسة الوزارة فيما بعد، اما كروكشانك فقد كان زعيم مجلس العموم فيما بين ١٩٥١ و١٩٥٥.

وفي الانتخابات العامة التي جرت في بريطانيا عام ١٩٢٩ مني المحافظون بهزيمة نكراء وفاز العمال بالاكثرية في المجلس، فقد حصلوا على ٢٨٧ مقعداً، بينما نال المحافظون ٢٦١ مقعداً والاحرار ٥٩ مقعداً. واستقال بولدوين من رئاسة الوزارة، وشكل ماكدونالد حكومة عمالية جديدة في ٨ حزيران ١٩٢٩، وقد عهد ماكدونالد في الوزارة الجديدة الى المستر آرثر هندرسون بمنصب وزير الخارجية.

وقد فاز ايدن هذه المرة ايضاً عن دائرته الانتخابية ورويك ولمنغتون. وأهم ما تميزت به هذه الانتخابات الجديدة ان الشيوعيين فيها فشلوا فشلا ذريعاً، وخسروا جميع المقاعد التي كانوا يحتلونها في المجلس السابق وعددها ٢٥ مقعداً.

وعملت الحكومة الجديدة على معالجة مشكلة البطـــالة في البلاد ، ولكن عندما سقطت الحكومة العمالية بعد سنتين، تبين ان عدد العاطلين عن العمل قد زاد ثلاثة اضعاف عما كان عليه عند تولي العمال الحكم .

وأبدى ايدن نشاطه في المجلس هذه الفترة في صفوف المعارضة، ففي تشرين الثاني عام ١٩٢٩ ، خاطب المجلس بخصوص المواضيع التالية : العلاقات الانجليزية الروسية، وموضوع تقاعد الارامل، ومسألة قاعدة سنغافورة . وفي اواخر كانون الاول من نفس السنة عالج في المجلس موضوعي العلاقات الانجلـــيزية الروسية والمعاهدة المصرية الانجليزية .

تدهور قوة بريطانيا جرّها الى الحرب الثانية

في تمام عام ١٩٣١ ، تعرضت انجلترا لاسوأ أزمة مالية حلت بها في تاريخها، وتشكلت لجنة لمعالجة الازمة. فقدمت اللجنة توصياتها بضرورة الاقتصاد في النفقات العامة ، حتى يتم توفير ٩٦ مليون جنيه ، وزيادة الضرائب بمقدار ٢٤ مليون جنيه لمعالجة الازمة .

وكان لهذا الامر رد فعل سيىء كبير في الداخل والخارج : وصار المستثمرون الاجانب يسحبون رؤوس أموالهم ، وكثر سحب الاجانب لارصدتهم من الذهب ، وبدأت قيمة الجنيه الاسترليني في الانخفاض ، وبدا ان بريطانيا توشك أن تقع في كارثة اقتصادية قاصمة .

فاستدعى ماكدونالد - رئيس الوزراء - زعيمي المعارضة - بولدوين وصامويل - من اجازتهما ، وطلب تأييدهما في ايجاد حل للازمة .

وانفقت بريطانيا القرض الذي حصل عليه بنك انجلترا - وقدره ٥٠ مليون جنيه - من بنك الاحتياط الفدرالي في نيويورك ،

ومن البنك المركزي في باريس . وأخذ بنك انجلترا يسعى للحصول على قرض جديد مقداره ٨٠ مليون جنيه ، وأبدت واشنطون وباريس استعدادهما لتقديم القرض الجديد ، ولكن بشرط الحصول على ضمانات كافية لتسديد الدين . وتعقدت الازمة ، مما جعل ماكدونالد يقدم استقالة حكومته ، ويطلب الى الملك تشكيل « حكومة قومية » مؤقتة لمعالجة الازمة .

وتشكلت الوزارة القومية الجديدة برئاسة ماكدونالد ، في ٢٩ آب ١٩٣١ من عشرة أعضاء ، بدل ١٦ او ١٧ عضواً كما جرت العادة ، وكانت الوزارة تتألف من اربعة وزراء محافظين وأربعة عمال واثنان احرار – واسندت وزارة الخارجية الى اللورد ريدنج ، من حزب الاحرار .

في هذه الظروف ، تولى ايدن لاول مرة منصباً وزارياً ، فقد عين وزير دولة للشؤون الخارجية ، والمهم في هذا المنصب الجديد الذي تولاه ، ان ايدن بسبب عضوية وزير الخارجية في مجلس اللوردات ، كان عليه ان يتحمل لوحده مسؤولية الاجابة على أسئلة النواب في مجلس العموم ، بخصوص سياسة الحكومة الخارجية . ولا ينكر احد ان ايدن كان اهلاً لهذا المنصب الذي تولاه ، فقد حصل على التدريب والخبرة الكافية في الشؤون الخارجية اثناء توليته منصب السكرتير البرلماني الخاص لوزير الخارجية – اوستين تشامبرلن – في السابق ، كما انه كان يعرف الكثير عن اعمال وزارة الخارجية ، وكان ملماً بالشؤون الاوربية وشؤون الشرقين الادنى والاوسط .

ونشطت الحكومة في مواجهة الازمة المالية ، فقررت (ميزانية طوارىء) لايجاد التوازن في مالية البلاد الداخلية ، وبالرغم من استرجاع شيء من الثقة الخارجية بالوضع المالي في بريطانيا ، فقد استمر الجنيه الاسترليني في التدهور ، مما اضطر الحكومة الى تخفيض قيمة الجنيه الاسترليني رسمياً ، الامر الذي جاءت الحكومة الجديدة لتتجنب حدوثه .

وأقدمت الحكومة على حل البرلمان ، لتستفتي الامة في انتخابات جديدة ، بخصوص السياسة التي كانت تزمع اتباعها . ونجح ايدن مرة اخرى في الانتخابات ، عن دائرته اياها «ورويك ولنغتون» .

وتشكلت الحكومة الجديدة بعد الانتخابات ، بتغييرات طفيفة عن الحكومة السابقة ، اذ تولى وزارة الخارجية في الوزارة الجديدة ، السير جون سيمون ، بدل اللورد ريدنج ، وبقي ايدن في منصبه السابق ، لكن رئيسه تغير ، ولم يعد لوحده في المجلس للاجابة على أسئلة النواب حول السياسة الخارجية .

وكان تولي سيمون وزارة الخارجية ، ايذاناً ببدء عهد جديد ، تميز بتدهور قوة وتأثير بريطانيا في الحقل الدولي . وقد ساهم وزراء الخارجية ـ سيمون وهوار وايدن وهاليفاكس ـ الذين تولوا هذا المركز في هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم ، في حصول هذا التدهور ، الذي انتهى بجر بريطانيا الى حرب عالمية ثانية . ويتحمل ايدن ، وغيره من الوزراء الذين تولوا الخارجية في تلك الاثناء ، مسؤولية ما حدث . ففي ١٩٣١ كان ايدن

وزير دولة للشؤون الخارجية ، ثم تولى منصب وزير شؤون عصبة الامم ، ثم تولى منصب وزير الخارجية حتى استقال عام ۱۹۳۸ .
وقد ساهم طوال هـذه الفترة في رسم السياسة الخارجية لبلاده بصورة فعالة ، ولا يمكنه أن يتنصل من مسؤولية مـا حدث من تدهور نفوذ وقوة بريطانيـا في الميدان الدولي ، وان استقالته عام ۱۹۳۸ بسبب مؤتمر مونيخ ، لا تبرئه من المسؤولية ابداً .

وعلى كل حال ، فأترك للقارىء ، الحكم على ايدن أو له ، بعد قراءة الفصول التالية ، التي سأعرض فيها مفصلاً تطور الاحداث السياسية ، التي وقعت في هذه الفترة ، التي تعد بحق من احلك الفترات التي مرت بتاريخ بريطانيـا ، بل وفي تاريخ العالم كله .

ذهب ايدن في أوائل عام ۱۹۳۲ الى جنيف ، ليتولى رئاسة الوفد البريطاني في مؤتمر نزع السلاح ـ المشكلة التي شغلت ايدن أكثر من غيرها في السنوات الخمس التي تلت ـ وكان هذا الموضوع ، في الواقع ، على غـاية الخطورة ، ففي الوقت الذي كانت الدول الديمقراطية اجمـالاً تسعى لتحقيق فكرة نزع السلاح ، كانت الدول الديكتاتورية تعمل بكل جد ونشاط في زيادة تسلحها .
فكانت الدول الديمقراطية من دعاة السلم والتهدئة ، ولكن تبين ان هذه السياسة التي كانت تتبعها الدول الديمقراطية لم تكن مجدية ، وانها كانت تخسر كل يوم شيئاً من مكانتها ونفوذها ، كما ان نذر الحرب العالمية الثانية ، كانت تتجمع بكثرة في الافق .

العودة الى الاقفاص خير من الاسنان والقرون !

كانت «الحماقة» التي اظهرها زعمـاء الدول الديمقراطية في

مشكلة «نزع السلاح» لا تغتفر ، فلم يستطع هؤلاء الزعماء ان يتحققوا منذ البداية ان هتلر كان ينوي دخول الحرب ، وانه كان يستعد لها . وأمر آخر اخطأ فيه زعماء الديمقراطية ، فقد كانوا يظنون ان نزع السلاح ، اذا ما تم ، سيمنع من نشوب الحرب .

وارتفعت في هذه الاثناء أصوات قليلة ، تنذر وتحذر من العواقب الوخيمة ، كان من بينها صوت ونستون تشرشل ، الذي كان خصومه ينعتونه آنئذ بلقب «داعية الحرب» ويقولون ان التحذير من امكانية نشوب الحرب ، يؤدي الى تقريب نشوبها . ومن الكلمات التي كانت سائدة في انجلترا في تلك الايام ان الحرب لا تخطر ببال احد . حقاً ، ان الناس الذين يخشون التفكير بالاخطار التي تنتظرهم في المستقبل ، انما يقربون هذه الاخطار منهم بسرعة .

ولعدة سنوات قبل الحرب ، كان تشرشل يحيط احاطة وافية باسرار استخبارات الجيش ، حول نشاط المانيا في الصناعة الحربية ، واعادة تسليح جيشها ، ولقد تم لتشرشل ذلك بمعرفة المستر بولدوين التامة وموافقته . والغريب في الامر ، ان تشرشل كان بعيد النظر ، واستطاع ان يدرك النتائج الحقيقية لاعمال المانيا هذه ، بينما فات ذلك بولدوين وزملاءه ، او انهم كانوا يريدون تضليل انفسهم ، وعدم تصديق الحقيقة التي كانت بادية بكل وضوح .

ولقد لعب ايدن دوراً رئيسياً في عملية خداع وتضليل

الرأي العام البريطاني هذه ، دونما قصد بالطبع . اما «تفاهة» الصحافة الشعبية في ذلك الوقت ، فقد تبدت في «تركيزها» في كتاباتها على ملامح ايدن الجميلة، وسحر شخصيته، واناقة هندامه، كما ان هذه الصحافة كسبت رضا الرأي العام بقولها ان بريطانيا في ذلك الوقت، كان يمثلها في المحافل الدولية شاب خفيف الروح، جميل المظهر ؛ ويظهر ان ذلك كان يوافق مزاج الشعب ، الذي يحب السلم ويصبو اليه .

ومن الامور التي ثار جدل كبير حولها في موضوع نزع السلاح هو : هل الاتفاق على نزع السلاح يجب ان يكون على أساس «النوع» او «الكم» .؟

فقد اقترح الرئيس هوفر الامريكي تخفيف اسلحة جميع الدول بمقدار الثلث ، ولكن آخرين قالوا ان مسألة نزع السلاح ، يجب ان تتم على اساس نوع السلاح وليس كميته ، فالاسلحة يجب ان تصنف في نوعين رئيسيين: أسلحة للهجوم واخرى للدفاع، فتحرم اسلحة الهجوم ويسمح باستعمال الاسلحة الدفاعية، ولكن كيف يمكن الاتفاق على ان هذا السلاح «هجومي» وذاك «دفاعي» . فالدول التي تملك أساطيل كبيرة كبريطانيا وامريكا مثلاً، ترى بالطبع ان الغواصات اسلحة هجومية ، بينما الدول الصغيرة التي لها سواحل طويلة ، ويمكن ان تتعرض موانئها لقصف المدفعية ، كانت ترى ان الغواصة سلاح رائع للدفاع عن النفس .

ان المدفع الثقيل ايضاً ، في داخل القلعة ، يمكن اعتباره سلاحاً دفاعياً ولكن اذا خرج هذا المدفع من القلعة ، ووضع على

عربة جر المدفع ، فانه يصبح سلاحاً هجومياً ، ويمكن ان يقال ذات الشيء في الطائرة المقاتلة والطائرة قاذفة القنابل . وهكذا ، فقد تبين ان الجدال حول هذا الموضوع لانهاية له ، وهذا ماثبت بالفعل .

ولقد انتقد تشرشل هذه الناحية من النقاش حول نزع السلاح في خطاب قصير ألقاه في تشرين الاول عام ١٩٢٨ ، أي قبل البحث في الموضوع في جنيف على مستوى دولي ، عندما كان لا يزال وزيراً للمالية ، وقد اطلق تشرشل على هذا الخطاب اسم «اسطورة نزع السلاح» وفيما يلي هذه الاسطورة :

«حدث ذات مرة ، ان جميع الحيوانات في حديقة الحيوان ، قرروا ان ينزعوا سلاحهم وعقدوا مؤتمراً فيما بينهم ، للاتفاق على ترتيبات هذا العمل . وافتتح «وحيد القرن» النقاش في المؤتمر وقال ان استخدام «سلاح الاسنان» امر وحشي همجي ويجب تحريمه كلية بموافقة الجميع ، أما «القرون» فهي اسلحة دفاعية في الدرجة الرئيسية ، ولذلك يجب السماح باستخدامها .

وفي الحال ، ابدى الثور والوعل والقنغز الكبير وحتى القنغز الصغير استعدادهم للتصويت الى جانب اقتراح وحيد القرن ، ولكن الأسد والنمر اتخذوا وجهة نظر اخرى . فقد دافعوا عن الاسنان وحتى عن «المخالب» ووصفوها بأنها اسلحة شريفة ، استخدمت منذ أقدم العصور ، وأيد الاسد والنمر في اقتراحهما النمر الارقط والفهد والبوما وجميع فصيلة القطط .

ثم تكلم «الدب» واقترح تحريم الاسنان والقرون ، وعدم

استخدامها في القتال بين الحيوانات في المستقبل ، وان يكتفي الحيوانات باستعمال «الدفش» بالاكتاف في منازعاتهم ، ودعا الى عدم اعتراض احد ، فهذا امر «اخوي» يؤدي الى استتباب السلم بين الحيوانات . ولكن جميع الحيوانات شعرت بأنها قد اوذيت من اقتراح الدب ، وأخذ الديك الرومي يبكي وينتحب .

واحتدم النقاش وبدأت جميع الحيوانات التي اجتمعت من اجل السلم ، تفكر بالقرون والاسنان والدفاع وصار كل واحد منها ينظر الى الآخر نظرة سخط وغضب . وكاد الأمر يتطور الى ما لا تحمد عقباه ، فتدخل حراس الحديقة ، وهدأوا المؤتمرين وأقنعوهم بالعودة الى اقفاصهم ، فتم ذلك بهدوء ، وعاد السلام والوئام ثانية بينهم !» .

ليلة رهيبة وحادث اغتيال خلق ازمة دولية

وقد حان الوقت الآن ، لنذكر القارىء اننا لا ننوي ، في هذا الكتاب ، ان نوغل به في « الممرات المتشعبة » لابحاث عصبة الامم في جنيف ، فليس هذا هدفنا من كتابة هذه السيرة ، ويكفي ان نذكر الآن ، ان اهم عامل من عوامل « وفاة » العصبة كان « تركيزها » – دون جدوى طبعاً – على موضوع نزع السلاح . ولو ان العصبة كرست عشر الجهود التي بذلتها في هذا الموضوع العقيم ، في التفكير بالوسائل التي يمكن للعصبة بها وقف او عرقلة اعمال المعتدي ، لكان من الممكن ان يتجنب العالم ويلات الحرب العالمية الثانية . والامر الذي يغيظ

في هذا الموضوع ، ان جميع اولئك الذين كانوا يؤمنون بالعصبة كثيراً كانوا يرتعدون خوفاً من استخدام القوة ، او التهديد باستعمالها ، اما الذين ادركوا الحقيقة ، فقد كانوا قلة ضئيلة في ذلك الحين .

وفي الوقت الذي كان الوضع الدولي يتدهور فيه من سيء الى اسوأ ، كانت اسهم ايدن ترتفع ، فان كره الشعب المتزايد للسير جون سيمون ، وزير الخارجية ، جعل المستر ماكدونالد ، رئيس الوزراء ، يرقي ايدن الى مركز « اللورد حامل اختام الملك » في ١ كانون الثاني سنة ١٩٣٤ ، وربما كان ذلك بناء على اقتراح بولدوين . ويعد هذا المركز من أرفع المناصب الحكومية ، ويؤهل صاحبه عادة لتبوء كرسي في المجلس الوزاري ، ولم ينل ايدن على اي حال ، حق الجلوس في المجلس . ولكن هذه الترقية التي نالها ، قد زادت في اهمية مركزه وكان في كثير من الاحيان يقدم تقارير عن اعماله في المجلس ، وقد جعل مركزه معاون لوزارة الخارجية ، وأصبح رسمياً تحت اشراف « سيمون » في عمله .

وكان الوضع الدولي العام في تلك الاثناء يزداد سوءاً ، فقد كانت العصبة تحاول دون جدوى ، معالجة الغزو الياباني للصين ، كما ان مؤتمر نزع السلاح كان يتابع جلساته العقيمة ، وتسلم هتلر زمام السلطة في المانيا ، واعلن انسحاب بلاده من عصبة الامم .

في هذه الظروف الدولية ، تقرر ان يقوم ايدن برحلة في اوروبا ، يزور خلالها باريس وبرلين وروما . وكانت المهمة التي

عهد بها الى ايدن، هي احياء موضوع نزع السلاح ، وفق المشروع الذي وضعه ماكدونالد، ولم تكن هناك خطة معينة، أو جدول اعمال معد ، للمباحثات التي كان ايدن سيجريها ، ولذلك لم تحقق رحلة ايدن أية نتائج ايجابية ، فيما عدا تبادل في وجهات النظر المختلفة .

ولم تجيء زيارة ايدن لباريس في الوقت المناسب ، فقد وصل اليها في الوقت الذي كانت تسود فيه العاصمة الفرنسية الاضطرابات والمظاهرات في الشوارع ، التي تسبب عنها مقتل ١٥ شخصاً ، وجرح ما يزيد عن مائتين ، وقد أدى ذلك الى سقوط حكومة « دالادييه » وشكل « دومارغو » - رئيس الجمهورية السابق - حكومة جديدة .

وتوجه ايدن الى برلين ، حيث اجرى بعض المباحثات مع الهر هتلر ، وقد كتبت « التايمز » عن هذه المقابلة ما يلي : الذي يبدو ، ان المستر ايدن والهر هتلر قد انسجما مع بعضهما البعض. ثم سافر ايدن الى رومـا ، حيث اجتمع لاول مرة بالسنيور موسوليني ، ولقد كتبت صحف كثيرة ان كرها متبادلاً قد نشأ بين ايدن وموسوليني ، خلال هذه المقابلة ، ولكن هذه الصحف لم تبين على أي اساس بنت آراءها هذه، وعاد ايدن من روما الى الى لندن ماراً بباريس .

وفي خلال عام ١٩٣٤ ، ظهر تهديد دكتاتوريْ المانيا وايطاليا بوضوح في اوروبا. وقد سادت موضة « الاغتيال » كمقدمة للقيام بأعمال العدوان ، في تلك الايام . ونشط هتلر في داخل المانيا

وفي خارجها . ففي ٣٠ حزيران ١٩٣٤ وقعت حوادث تلك « الليلة الرهيبة » المشهورة في تاريخ المانيا النازية ، فقد استخدم هتلر الجيش والبوليس ، للاستيلاء على قيـــادة قوات الهجوم الخاطف ، وقام باعدام قائد القوات « روهم » مع أكثر من مائة من القادة الآخرين ، وكان من بين القتلى الجنرال « شلايشر » .

وبعد ثلاثة اسابيع ، حاول نازيو النمسا تولي السلطة ،وقتلوا الدكتور « دولفاس » مستشار الحكومة النمساوية ، وكان رد فعل موسوليني لهذا الحادث عنيفاً ، اذ انه قام بوضع ثلاثة فيالق من الجيش الايطالي عند ممر « برنار » ، وقد جعـــل ذلك هتلر يصمت فترة من الوقت . وفي ٢ آب ١٩٣٤ ، توفي « الفون هندنبرغ » رئيس الجمهورية الالمانية في فراشه عن عمر يبلغ السادسة والثمانين ، وأصبح هتلر الحاكم بأمره في المانيا .

وفي ٩ تشرين الاول ١٩٣٤ ، جرى اغتيال الملك الكسندر ، ملك يوغوسلافيا ، في مرسيليا بينما كان يقوم بزيارة رسمية افرنسا اغتيل هو ولويس بارثو ، وزير الخارجية الفرنسية ، وكان الذي قام بحادث الاغتيال شخص ارهابي من « الكروات » درب على أعمال الارهاب في ايطاليا ، وقامت المجر ، حليفة ايطاليـا ، بتزويده بجواز سفر مجري . وكان ايدن يقـــوم بزيارة ودية لاسكندنافيا ، عندما وقعت حادثة مرسيليا ، فعاد بسرعة الى جنيف ، لحضور اجتماع مجلس عصبة الامم ، ممثـلاً لبريطانيا ، عندما التأم المجلس للبحث في موضوع اشتراك المجر في اغتيـال الملك الكسندر . وقد انتخب ايدن بموافقـــة جميع الاعضاء

وسيطاً في المجلس ، وكان انتخابه هذا بسبب الشهرة التي حصل عليها في الاوساط الدولية،وبسبب السمعة الحسنة التي كان يتمتع بها بين جميع السياسيين الاجانب الذين كان يتصل بهم بكثرة .

وكان الجو الذي يسود مجلس العصبة عند انعقاده مشحوناً بالتوتر، كما ان الاعضاء كانوا يرغبون جدياً في مواجهة المسؤوليات الملقاة على عاتقهم ، وقد قال الدكتور « بينيز » وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا في بدء جلسات المجلس « لو ان هــذه القضية المعروضة أمام المجلس ، وقعت قبل الحرب الاولى ، وقبــل ان توجد عصبة الامم ، لادت الى قيام حرب لا محالة بين الدولتين المعنيتين . »

وقد أيد وزير الخارجيــة الفرنسية في المجلس الحكومــة اليوغوسلافية «على المكشوف» ، كما اظهرت ايطاليا انها في جانب المجر . وكان ذلك واضحاً ، لان فرنسا كانت حليفة يوغوسلافيا، وايطاليا كانت حليفة المجر .

مجلس الوزراء الالماني يفرض التجنيد الاجباري

وقد كان للديبلوماسية التي اظهرها ايدن في اجتماعات مجلس العصبة ، اكبر الاثر في تخفيف حــدة التوتر ، التي كانت تسود الموقف الدولي ، اذ أقنــع كلا من فرنسا وايطاليــا ، بضرورة التوصل الى تسوية سلمية للنزاع ، ونجــح في وضع قرار ، شجب فيه بشدة الجرائم التي وقعت في مارسيليا ، والتي ذهب ضحيتها ملك يوغوسلافيا ، ووزير خارجية فرنسا ، وأعرب عن مشاركة

الدول ليوغوسلافيا وفرنسا في مشاعرهما .

واشار القرار الى ان الاغتيالات الارهابية ، تتعارض مع نص المادة العاشرة من ميثاق العصبة ، لأنها تشكل خرقاً لاستقلال الدول السياسي . وقد نال ايدن ثناء كبيراً على مهارته الديبلوماسية ، التي ابداها في المفاوضات ، وقرر المجلس كذلك ، بالاضافة الى ما سبق ، تشكيل لجنة تهيىء لعقد اجتماع ينظر في موضوع القضاء على الاعمال الارهابية . وقد صوت أعضاء المجلس بالاجماع الى جانب القرارات التي صاغها ايدن ، لانها لم تكن تلزم أحداً بالقيام بأي عمل .

وفي خلال هذه السنة ايضاً - ١٩٣٤ - اهتم ايدن في جنيف بالتوصل الى اتفاق بين المانيا وفرنسا ، بخصوص النزاع الذي كان قائماً بينهما حول منطقة « السار » وساهم في تخفيف حدة التوتر في هذا الامر ، مما أدى الى زيادة شهرته . وفي الواقع ، لم يكد ينتهي عام ١٩٣٤ حتى كان ايدن قد حصل على شهرة واسعة في داخل انجلترا وخارجها ، ولكن كانت تنتظره أزمات دولية جديدة واجهت العالم في ذلك الحين ، وهي مشكلة الحبشة ، واحتلال هتلر للراين ، ونشوب الحرب الاسبانية الاهلية بالاضافة الى مشكلة اعادة تسليح المانيا ، التي كانت لا تزال قائمة .

ففي نهاية سنة ١٩٣٤ ، بدأت ايطاليا تتحرش بالحبشة ، وكما كان يحدث غالباً في تلك الايام ، كانت تسبق حوادث العدوان بيانات على مستوى عال ، تعلن الصداقة والعزم على عدم القـ بأي عدوان .

ففي اوائل شهر تشرين الاول تبادلت حكومتا ايطاليـــا والحبشة الرسائل الودية ، ولكن تبع هـذه الرسائل في تشرين الثاني وكانون الاول بين الدولتين ،انباء عن وقوع اعتداءات على حدودهما . وفي ٢٦ كانون الاول احتجت الحبشـة بأن القوات الايطالية كانت تهاجمها في « والوال » وفي ١ كانون الثـــاني عام ١٩٣٥ رفعت الحبشة شكوى الى عصبة الامم ، تشكو ايطاليا فيها بالعدوان على اراضيهـــا ، خلافاً للمادة (١١) من ميثاق العصبة .

وفي اواخر كانون الثاني عام ١٩٣٥ ، جاء المسيو «فلاندان» رئيس الوزارة الفرنسية ، والمسيو «لافال» وزير خارجيته ، الى لندن في زيارة رسمية ، وكان «لافال» قد قام بزيارة لروما قبل نهاية عام ١٩٣٤ ، حيث عقد اتفاقاً مع موسوليني .

وقد تم توقيع الاتفاقية الفرنسية ـ الايطالية في ٧ كانون الثاني ١٩٣٥ ، وبموجبها تنال ايطاليا ما مساحته (٤٣) الف ميل مربع من الاراضي الفرنسية في افريقيا الغربيـــة الفرنسية وافريقيا الاستوائية الفرنسية ، كما تزداد مساحة أراضي الاريتيريا الايطالية ، بأخذ قسم من الصومال الفرنسي ، هذا بالاضافة الى اعتراف فرنسا بالسيادة الايطالية على جزيرة «دوميرا» .

وكانت بريطانيا قبل ذلك ،تلح على فرنسا ان تسوي خلافاتها مع ايطاليا ، حتى يصير بالامكان تشكيل جبهة انجليزية فرنسية طليانية لمواجهة تهديدات هتلر . وكان فلاندان ولافال مقتنعين تماماً ، ان هذه الجبهة في صالح فرنسا ، كما ان فرنسا كانت ترى

ان الوصول الى اتفاق فعلي مع ايطـاليا ، يرفع عن كاهلها عبء الدفاع عن حدودها في الالب ، ويصير بامكانهـــا نقل فرقها العسكرية التي ترابط هناك، الى الحدود الالمانية الفرنسية، حيث كانت تكمن الاخطار الكبيرة .

وامضى فلاندان ولافال ٤٨ ساعة في العاصمة البريطانية، قاما خلالها باطلاع الحكومـة البريطانية على التقدم الذي أحرزاه في محادثات روما ، كما بينا لبريطانيا ان موسوليني نفسه كان متخوفاً من هتلر ، وانه كان مستعداً للتباحث مع فرنسا وانجلترا في مكان ما في ايطاليا، للاتفاق على تشكيل جبهة مشتركة انجليزية فرنسية طليانية ، ضد اي عدوان الماني .

وبعيد هذه المباحثات الفرنسية الإنجليزية رأساً ، تقرر أن يقبل السير جون سيمون ، وزير الخارجية البريطانية ، دعـوة لزيارة هتلر في برلين في آذار .

وفي الرابع من آذار « نشرت الحكومة البريطانية كـتابا أبيض يتعلق بشؤون الدفاع ، احتجت فيـه بشدة على التسلح الالماني ، والذي من شأنه ان يزيد من قلق الدول المجاورة لالمانيا، اذا استمر على شكله الحالي ، دون اية رقابة ، كما انه يمـكن أن يهدد السلم العالمي .

وبعد يومين من اذاعة هذا الكتاب ، أبلغت المانيا الحكومة البريطانية ان هتلر مريض ولذلك فسوف تؤجل زيارة السير جون سيمون . والواقع ان هتلر قد غضب من البيان الانجليزي وعمل على تأجيل زيارة وزير الخارجية .

وفي ١١ آذار ١٩٣٥ ، جرت في مجلس العموم البريطاني مناقشة السياسة الدفاعية للحكومة ، وقد خفف فيها المستر بولدوين من حدة ما جاء في الكتاب الابيض . وأوضح ان ما جاء فيه بخصوص المانيا ، لم يقصد منه القاء اللوم على المانيا فقط في التسابق بالتسلح ، ورضي هتلر عندما تناهى اليه ما جرى في المناقشة في مجلس العموم البريطاني ، وأعلن انه على استعداد لاستقبال السير جون سيمون في برلين بكل سرور في ٢٤ آذار.

وفي نفس الوقت تقريباً ، أعلن في برلين ان مجلس الوزراء الالماني قد قرر في جلسته التي عقدها في ١٦ آذار فرض التجنيد الاجباري في المانيا ، وان القوات الالمانية ستزاد بحيث تصبح ٣٦ فرقة ، أي حوالى (٥٦٠) ألف جندي . وكان هذا القرار نقضاً صريحاً لمعاهدة فرساي التي كانت جزءاً أساسياً من ميثاق عصبة الامم .

موسوليني يحتقر هتلر

وعندما اعلنت الحكومة الالمانية قانون التجنيد الاجباري، عاد السير جون سيمون مسرعاً الى لندن، وكان في ويلز، كما ان رئيس الوزراء قدم الى لندن في الصباح التالي من «تشيكرز» مقره الريفي.

واجتمع مجلس الوزراء البريطاني في ١٨ آذار، وقرر ارسال مذكرة الى المانيا، بينت الحكومة البريطانية فيها، ان هذا القرار الالماني من شأنه ان يزيد في حدة التوتر في اوروبا، كما انه سيجعل الوصول الى اتفاق مع الحكومة الالمانية، في الزيارة التي سيقوم بها وزير الخارجية البريطانية الى برلين، امراً صعباً، ان لم يكن مستحيلاً.

وظهر ان موقف الحكومة البريطانية هذه المرة ليس «رخواً» امام دكتاتور المانيا، كما ان هتلر اظهر شيئاً من المرونة، وجدد الدعوة لزيارة وزير خارجية بريطانيا الى برلين، وبالفعل سافر السير جون سيمون والمستر ايدن الى العاصمة الالمانية في ٢٤ آذار.

وتبين في المحادثات التي دارت بين انجلترا والمانيا في برلين،

ان هناك خلافاً في وجهات النظر بين الحكومتين ، فلم يكن هتلر يعير موضوع الامن الجماعي ، والسلم الاوروبي ، اهتماماً كبيراً ، وبالرغم من انه ابدى استعداداً للعودة الى عصبة الامم بموجب شروط معينة ، الا انه لم يظهر استعداداً لاعطاء اية ضمانات بخصوص النمسا ، كما انه لم يكن مستعداً لأن يتراجع عن قانون التجنيد الاجباري الذي اصدره في المانيا . وقد قام هتلر باعلام السير جون ان المانيا قد اصبحت آنئذ مكافئة في قوتها الجوية لبريطانيا .

هذا ما اسفرت عنه زيارة الوزيرين البريطانيين الى برلين ، تلك الزيارة التي كانت الامة البريطانية تتلهف اليها ، وان دلت هذه الزيارة على شيء ، فانما تدل على ان الدول التي كانت تحرص على بقاء السلم ، شأن انجلترا في ذلك الحين ، بأي ثمن ، انما كانت تقرب الحرب من نفسها .

وعاد سيمون من برلين الى لندن ، وسافر ايدن الى موسكو ، في رحلة كبيرة اخرى من رحلاته الاوروبية . وقد زار ايدن وارسو وبراغ في طريق عودته الى لندن . وقد اجرى ايدن في موسكو محادثات مع ستالين ، ولتفينوف وزير الخارجية السوفياتية ، ومولوتوف ، وكرستنسكي ، وقد صدر بلاغ مشترك بعد الزيارة ، التي استغرقت يومين ، جاء فيه انه قد اتفق في المحادثات التي دارت بين ايدن والزعماء السوفيات ، انه من الضروري ، بسبب الوضع الدولي الراهن ، العمل على انشاء نظام للأمن الجماعي في اوربا ، وفق ما جاء في البلاغ الذي صدر

اثر المحادثات الانجلو - فرنسية ، ووفق مبادىء عصبة الامم .
كما ذكر البـــلاغ الروسي الانجليزي ، ان التعاون الودي بين البلدين ، في العمل على منظمة جماعية لحفظ السلم ، امر ضروري لتحقيق السلام العالمي .

وفي وارسو ، اجرى ايدن محادثات مع المارشال « بلسودسكي » والكولونيل « بيك » ، وكانت المحادثات ودية ، ولكن بولندا لم لم تقبل فكرة الدخول في « الحلف الشرقي » المقترح آنئذ .

وفي براغ اجرى ايدن محادثات مـع الرئيس « مازاريك » ومع الدكتور « بينيز » وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا . وقد كانت الرحلة الجوية التي قام بها ايدن من براغ الى لندن متعبـة جداً . ووصل ايدن الى لندن في حالة من الاعياء الشديد ، وكان بحاجة الى استراحة تامة لمدة ستة اسابيع .

وفي اثناء غياب ايدن في اوربا ، جرت المباحثات لعقـــد مؤتمر انجليزي فرنسي - طلياني ، وتم الاتفاق على عقد المؤتمر في « ستريسا » ، وكان المفروض ان يرافق المستر ايدن وزير الخارجية السير جون سيمون الى المؤتمر ، ولكنه لم يتمكن من ذلـك بسبب اعيائه من سفرته الاخيرة ، لذلك قرر المستر ماكدونالد ، رئيس الوزراء ، الذهاب بنفسه الى المؤتمر .

وانعقد المؤتمر الثلاثي (انجلترا وفرنسا وايطاليـــا) في « ستريسا » في ١١ حزيران . وكان هدف الوفدين البريطـاني والفرنسي في المؤتمر - على ضوء التسلح الالمـــاني والخطر الذي

اصبحت تشكله المانيا لجاراتهـا ـ انشاء جبهة قوية من الدول الثلاث ، بحيث تصبح هـذه الدول في وضع قوي ، تستطيع استناداً اليه اجراء مفاوضات جديدة مع المانيا بخصوص موضوع التسلح .

وكانت فرنسا قبل ذلك ، قد حاولت جلب موسوليني الى صفها ، ولهذا تنازلت عن مساحات من ممتلكاتها في افريقيـا لايطاليا في السنة السابقة . وكان موسوليني في ذلك الوقت ، لا يخشى فقط التوسع الالماني، وانما كان يحمل في طيات نفسه شعوراً بالاحتقار والازدراء لهتلر، وكان اجتماعهما في البندقية في حزيران من العام الماضي فاشلاً . كما ان موسوليني كان يشعر بنوع مـن الزهو والكبرياء ، لان هتلر لم يقم بأي عمل ، عندمـا وضعت ايطاليا ثلاثة فيـالق من جيشها عند ممر «برنار» على اثر مقتل الدكتور «دولفاس» . وكان يظهر بكل وضوح ، ان تشكيل جبهة انجليزية فرنسية ، طليانة ، هو في صالح ايطاليا .

هذا ومن المؤكد ان وزير الخارجية الفرنسية ، مسيو لافال ، بالاضافة الى التنازلات الفرنسية لايطاليا عام ١٩٣٤ ، قد اعلم موسوليني ، ان فرنسا لا تقاوم غزو ايطاليا الحبشة ، ذلك الغزو الذي كانت ايطاليا تفكر فيه من زمن بعيد ، وكانت تعد العدة لـه .

موسوليني يصمم على غزو ارض الحبشة

كانت اتفاقية «ستريسا» ، ظاهرياً ، أعلى ما وصلت اليـه

الديبلوماسية الاوروبية ، منذ تسلم هتلر زمام السلطة في المانيا .
وفي الجلسة الختامية للمؤتمر ، وقعت حادثة تجدر الاشارة اليها هنا ، فبينما كان موسوليني يقرأ بنود الاتفاقية ، ووصل الى الفقرة الاخيرة التي تعهدت فيها الدول الثلاث بأن « تقاوم بجميع الوسائل ، اي نقض للمعاهدات من جانب واحد ، اذا ما رؤي ان هذا النقض يهدد السلم الاوربي » ، صمت موسوليني لبرهة من الوقت ثم تابع القراءة . وبالطبع كان هذا «التعهد» في نظر موسوليني ينطبق على اوربا فقط ، ولا علاقة له بافريقيا .
وكان يرافق ماكدونالد رئيس الوزراء والسير جون سيمون وزير الخارجية في مؤتمر «ستريسا» ، السير روبرت فانسيتارت ، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية في ذلك الحين ، وقد ذكر لي السير روبرت فيما بعد ، انه قد نبه ماكدنالد الى سلوك موسوليني بعد لحظات ، ولكن ماكدونالد اجاب «لا تكن مزعجاً يا فان ، فنحن لا نريد اية متاعب . ان ما نبغيه فقط ، اتفاقية نستطيع أن نواجه بها مجلس العموم » .
وقد اوضح فانسيتارت آنئذ لوكيل وزارة الخارجية الايطالية ، ان غزو ايطاليا للحبشة ، يعني تحطيم اتفاقية « ستريسا » لأن الرأي العام في بريطانيا ، لن يقبل بهذا الغزو .
والامر الجدير بالذكر هنا ، ان رئيس الوزارة البريطانية لم يقم بتحذير موسوليني ، بما قد ينجم عن غزو الحبشة . لقد كان همه احراز النصر في البرلمان . وفعلاً ، نال ذلك ، ولكن الثمن كان باهظاً ، فقد شن موسوليني الحرب على الحبشة واحتلها ،

وأعاد هتلر تسليح الراين وضم النمسا ، ودفعت كل من بريطانيا وفرنسا الثمن . وصحيح ان الامور قد وضعت في موضعهــــا الصحيح فيما بعد ، ولكن بعد حرب عالمية طاحنة . حقاً ، لقد كان ثمن « النصر البرلماني » هذا غالياً جداً .

وكان رد هتلر على اتفاقيــــة « ستريسا » التي كانت موجهة ضده ، انه اعلن رأساً نقضاً آخر لبنود معاهدة فرساي ، فقد اعلن عن عزمه على الشروع في بناء غواصات جديــدة لالمانيا . وفي الوقت الذي كانت فيــــه محادثات ستريسا جـارية ، كانت الحكومــــة البريطانية تدرس امكانية الافادة من المقترحــات التي قدمها هتلر لسيمون وايدن عندما زاراه في برلين .

فقد عرض هتلر عليهما فكرة عقد اتفاقيــة بحرية انجليزية ــ المانية، وشجعت الحكومة البريطانية المانيا على تقديم مقترحاتها . وفي ٣ حزيران جاء الهر (روبنتروب) الى لندن مع بعــــض الخبراء البحريين، ولديهم المقترحات التالية : تحدد المانيا اسطولها بنسبة ٣٥ في المائة من الاسطول البريطاني، ولكن يكون لالمانيا الحق في امتلاك قوة من الغواصات ، تعادل قوة الغواصــــات البريطانية .

وقبلت الحكومة البريطانية بهـــذه المقترحات ، ووقعت الاتفاقية في ١٨ حزيران . وقد تعرضت الحكومة البريطانيـــة لانتقاد كبـير بسبب توقيع هـذه الاتفاقية ، كما هوجمت سياسة الترضية « والتهدئة » التي كانت تتبعهــا ، ووصفت بأنها سياسة «إذلالية» ولم ترض فرنسا وايطاليا عن الاتفاقية الجديدة، واعتبرتها

خرقاً لسياسة الجبهة المتحدة ، التي اتفق عليها في (ستريسا) . فأوفدت الحكومة البريطانية ايدن الى باريس وروما ، لتهدئة الجو . ولم يستطع ايدن ان يقنع لافال وموسوليني بأن عمل انجلترا كان صحيحاً ، ولكنه استطاع ، على اي حال، ان يؤكد لفرنسا وايطاليا حسن نية بريطانيا ، كما أعاد شعورهما الود نحو بريطانيا ثانية .

كان اول عمل قام به السير صامويل هور ، الذي تسلم وزارة الخارجية البريطانية في ٦ حزيران ، عندما اصبح المستر بولدوين رئيساً للوزراء ، هو اجراء مفاوضات وتوقيع هذه الاتفاقية البحرية الانجلو-المانية،وهو الذي يتحمل مسؤولية هذا العمل . وقد رقي ايدن في الوزارة الجديدة،ومنح مقعداً في مجلس الوزراء، حيث اصبح وزيراً بلا وزارة ، لشؤون عصبة الامم .

وكان موسوليني في تلك الاثناء ، يعد العدة لتحقيق اطماعه في الحبشة . ويرجع اهتمام ايطاليا بالحبشة الى عام ۱۸۷۰ ،عندما اشترت شركة ايطالية ميناء « عساب » على البحر الاحمر ، وبدأ الطليان يتوغلون في داخل القارة الافريقية ، ووقعت عدة معارك حربية ، انتهت بهزيمة الطليان المنكرة في معركة « عدوة » عام ١٨٩٦ ، وقد قام الاحباش « بخصي »عدة آلاف من الأسرى الطليان ، وفق تقاليدهم العسكرية المرعية . وقد جن جنون ايطاليا لهذا العمل واصبح الثأر لهذا الحادث « مطمحاً قومياً » لايطاليا .

وفي نهاية عام ١٩٣٥ ، رفعت الحبشة شكوى ضد ايطاليا

الى عصبة الامم ، اثر حادث العدوان على (والوال) على الحدود ، وعهدت العصبة بالامر الى لجنة تحكيم ، ولكن حوادث الاعتداءات على الحدود تكررت ، وتبين ان ايطاليا لم تكن تنوي الانصياع لقرارات المنظمة الدولية . واوفدت انجلترا ايدن لمفاوضة (الدوتشي) ، وعرضت عليه ان تتنازل له عن قسم من ممتلكاتها في الصومال ، مقابل الوصول الى اتفاق . وزاد ذلك موسوليني تعنتاً ، واعلن في ٧ تموز ان قرار ايطاليا بغزو الحبشة لا رجوع عنه .

وفي ١١ ايلول اجتمعت الجمعية العامة للعصبة ، للنظر في مشكلة الحبشة وتوجه « هور » الى جنيف ، وبدا ان العصبة كانت متحمسة للقيام بمهامها في حفظ السلم واعلن « هور » في كلمته التي القاها في الاجتماع ان بلاده تؤيد بقوة المحافظة على ميثاق العصبة ، وتقاوم العدوان .

ولاح في الافق ان العصبة ستنجح في ايجاد نظام للامن الجماعي ، فقد كانت مشكلة « السار » قد سويت بعد اجراء استفتاء فيها ، وتقرر اعادتها الى المانيا . ولكن هل نجحت العصبة في منع العدوان على الحبشة .

الدوتشي يستخدم الغازات السامة في الحبشة

وبالرغم من كلمات « هور » البطولية في جنيف ، فقد هاجمت ايطاليا الحبشة في ٣ تشرين الاول ، وقام « بولدوين » بحل البرلمان الانجليزي في ٢٥ تشرين الاول ، وحدد الرابع عشر من تشرين

الثاني موعداً لاجراء الانتخابات الجديدة . واصدرت الحكومة بيانها الانتخابي في ٢٧ تشرين الاول، اكدت فيه ان « عصبة الأمم ستبقى حجر الزاوية في سياسة بريطانيا الخارجية » ، واعلنت الحكومة في بيانها كذلك ، انها ستمضي قدماً في ميثاق العصبة، وانها – في النزاع القائم بين ايطاليا والحبشة ، ستعمل على ايجاد تسوية عادلة ، ضمن اطار العصبة ، تسوية تكون مقبولة لايطاليا والحبشة والعصبة نفسها . وفازت الحكومة في الانتخابات .

وفي اثناء انشغال بريطانيا بانتخاباتها العامة ، كان موسوليني يشن حربه الضروس في الحبشة ، واستخدم في الحرب الغازات السامة ، ولم تمض اربعة ايام على بدء موسوليني الهجوم ، حتى صدر قرار بالاجماع في مجلس عصبة الامم وصم ايطاليا فيه بأنها دولة معتدية . وبعد ثلاثة ايام ، شكلت لجنة تقوم بفرض سلسلة من العقوبات على الدولة المعتدية ، فقررت فرض حظر شحن الاسلحة لايطاليا كما فرضت عليها عقوبات اقتصادية ومالية اخرى . وذهب ايدن الى جنيف ، وقدم اقتراحاً بدعوة جميع دول العصبة الى مقاطعة البضائع الايطالية ، وقد اقرت اللجنة هذا القرار الاجماع .

وجرت مناقشة الموضوع في مجلس العموم البريطاني، واعلن السير صامويل هور وزير الخارجية، ان جهاز العصبة يسير سيراً حسناً في فرض عقوباته ، وفي الحقيقة ، ان العقوبات الاقتصادية التي فرضت على ايطاليا ، اثرت على الايطاليين المدنيين ، اكثر من تأثيرها على مجهود ايطاليا الحربي. وبدلاً من ان توجد شعوراً

بالكراهية ضد الحرب في ايطاليا ، فانها ساهمت في اذكاء الروح الوطنية وإثارتها .

ولم تجد هذه العقوبات شيئاً في الواقع ، لانه يبدو ان الدول لا تفرض الحظر على شيء يمكن ان يعترض عليه موسوليني ، لخوفها من نشوب الحرب ، وقد تبين فيما بعد أن لافال وزير الخارجية الفرنسية ، كان على اتصال بموسوليني وكان يطلع على رغبات «الدوتشي» اولاً باول .. لقد كانت هذه العقوبات في الحقيقة «بدون اسنان» ، وانتصرت ايطاليا في الحرب .

وسافر «هور» الى سويسرا لقضاء اجازة مرضية ، وعرج في طريقه على باريس ، حيث اجرى مفاوضات مع لافال بخصوص مشكلة الحبشة ، وقد ذكر هور في مذكراته فيما بعد ، ان لافال كان يتصل تلفونياً مع موسوليني كل يوم ، ويظهر انه كان هناك خط سري يربطهما مباشرة .

وامضى هور يومين في باريس ، واصل بعدهما سفره الى سويسرا ، وابرق في طريقه الى لندن ، عن نتائج المباحثات التي اجراها في باريس . واجتمعت الوزارة البريطانية في اليوم التالي ووافقت على نتائج المباحثات بعد مناقشة طويلة .

وبدأت الصحف تنشر « تكهناتها » عن المشروع الذي تم الاتفاق عليه بين لافال وهور ، ورغم ان التقارير الصحفية كانت متباينة ، الا انها اتفقت على نقطة واحدة ، وهي ان تنازلات جديدة ستعرض على ايطاليا .

وفي ١٠ كانون الاول ، وبينما كان هور لا يزال غائباً ، تولى

ايدن مهمة الدفـــاع عن مشروع « هور – لافال » في مجلس العموم . فأكد ايدن للمجلس ان جهود وزيري الخارجيـــة ، انصرفت لايجاد اساس لتسوية المسألة سلمياً ، بناء على رغبة لجنة عصبة الامم ، كما اكد ايدن للمجلس ان ما نشر في الصحف حول الموضوع لم يكن دقيقاً ، وامتنع عن اذاعـة نصوص الم قبل عرضه على العصبة . ولكن ايدن ، على اي حال ، اع المجلس ان مشروع « هور – لافال » بني على الاسس التالية . تبديلات في مساحات من الاراضي ، وتقديم العون الاقتصادي للحبشة من قبل العصبة ومنح تسهيلات خاصة للمستوطنـــين الطليان والشركات الطليانية في الحبشة .

وذكر ايدن انه اذا لم تقر العصبة المشروع ، فإن الحكومة البريطانية ستعمل وفق قرار العصبة .

ونشر المشروع في اليوم التـالي ، وازداد سخط الصحافـة والرأي العام ، فقد تبين ان تنازلات كثيرة قد منحت لايطاليا ، وهاجمت « التايمز » بشدة هور في مقـال افتتاحي تحت عنوان « ممر الجمال » لان المشروع منع الحبشة من مد خط حديدي الى البحر الاحمر ، واعطاها فقط حق الوصول اليه في ممر على الجمال فقط . وامام ضغط الرأي العام ، اعلنت الحكومة رفضهـــا للمشروع ، والمضي في سياسة فرض العقوبات على ايطاليا . وعاد هور من سويسرا ، وكان لا يزال مريضاً ، فلزم الفراش . وقد رفض هور التراجع عن المشروع الذي كان هو مسؤولاً عنه ، واجبر على الاستقالة نتيجة لذلك ، وتولى ايدن منصب وزارة الخارجية .

مشكلة جديدة اشغلت ساسة أوروبا

أصبح المستر إيدن وزيراً لخارجية بريطانيا في ٢٢ كانون الاول عام ١٩٣٥ ، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره . وكان يتمتع آنئذ بسمعة حسنة جداً ، في داخل انجلترا ، ورحبت الصحافة البريطانية « بحرارة » بتوليه هذا المنصب ، وأعربت عن أملها في أن يتمكن من تحقيق سياسة « الجبهة المشتركة » ضد العدوان ، والتوصل الى تسوية سلمية للنزاع الطلياني الحبشي . ولكن المراقبين المدققين ، كانوا مقتنعين من أن بريطانيا ، ستخسر المعركة السياسية ، وان موسوليني سيفعل ما يريد ، كما أن هتلر سيعمل على الاستفادة من « حماقة » البريطانيين و« جبنهم » . هذه هي التركة « المحزنة » التي خلفها هور لايدن .

ففي ٧ آذار عام ١٩٣٦ ، أعاد هتلر احتلال الراين ، لقد دمر كل من ماكدونالد وهور وايدن « جبهة ستريسا » وأصبح هتلر حراً ، يتصرف كما يشاء . ولم يفعل الغرب شيئاً أمام هذا النقض الصريح لاتفاقية فرساي بل رضخ للامر الواقع ، ولماذا لا يفعل ذلك ؟ ألم يعلن بولدوين من قبل أن بريطانيا لن تحارب؟

فلو ان هتلر وجد رجالاً « شجعاناً » أمامه ، واستطاع رغم ذلك تحقيق ما حقق ، لوضعناه في صف العباقرة . ولكن ، من كان يقف امام هتلر ، وأمام أطماع هتلر ؟ بولدوين وايدن فقط ... وبعد ايام ، أعلن هتلر الشروع ببناء خط « سجفريد» الدفاعي.

لقد أصبحت حدود فرنسا مع المانيا بعد هذا الحادث معرضة لخطر جسيم . وكان رئيس الوزارة الفرنسية في ذلك الحين ، مسيو فلاندان ، يرى استخدام القوة ، لكبح جماح المانيـا المعتدية . فجاء فلاندان الى لندن ، ليحاول اقناع بولدوين واعضاء حكومته بضرورة قيام بريطانيا وفرنسا بطرد الالمان من الراين ، استناداً الى تعهداتهم في معاهدة فرساي ، ولكن فلاندان لم يتمكن من اقناع الحكومة البريطانية بالاقدام على هذه الخطوة الجريئة .

وأعلن هتلر بعد احتلال الراين ، كعادته ، امام الرايخشتاغ انه ليس لألمانيا أية مطالب اقليمية في اوربا . وقد رضي الغرب عن اعلان هتلر هذا ، رضي بذلك الذين كانوا يريدون الرضوخ ، وما اكثرهم .. واجتمع ايدن بالسفير الالماني في لندن ، واعرب له عن قلق الحكومة البريطانية للحادث . ثم توجـه ايدن ، وبصحبته اللورد هاليفاكس الى باريس ، وهنـالك اقترحا عرض قضية الراين على مجلس عصبة الأمم ، الذي يجب ان ينعقد في لندن .

واجتمعت الدول الأربع – بريطانيـا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا – الموقعة على « ميثاق لوكارنو » في لندن في ١٢ آذار عام ١٩٣٦ . واعترفت ان المانيا قد خرقت المادتين ٤٢و٤٣ من

معاهدة فرساي . وبعـد يومين ، اجتمع مجلس العصبة ودعا المجلس في نهاية جلساته المانيا لحضور الاجتماعات . واجتمع المجلس ثانيـة في ١٧ ، ١٨ و١٩ آذار ، وألقى « ريبنتروب » خطاباً طويلاً في المجلس في ١٩ آذار ، أعرب عن استعـداد بلاده لأن تقلل عدد قواتهـا في الراين ، كي يكون وجود القوات الالمانية « رمزياً » فقط ، والتوقف عن بناء التحصينات ولكن الحقيقة ان هذه الاجتماعات لم تسفر عن شيء .

واتضح جلياً ان كلا من بريطانيـا وفرنسا لم تكونا تنويان طرد هتلر من الراين ، مع ان هذا العمل كان سهلاً للغاية ، وخطت بريطانيا مرحـلة جديدة نحو الحرب ، التي ساقها اليها بالتناوب بولدوين ، ومـاكدونالد ، وتشامبرلن ، وهـور ، وسيمون ، وهاليفاكس ، وايدن .

وكان موسوليني في هذه الاثناء يتابع الحرب في الحبشة ، ولم ينتصف عام ١٩٣٦ ، حتى كان قد تمكن من احتلال جميع البلاد تقريباً ، ودخلت قواته « اديس ابابا » العاصمة في ٥ أيار ، وهرب الإمبراطو هيلاسيلاسي ، حيث وصل الى لنـدن في ٣ حزيران وظل يعيش في المنفى حتى اعادتـه القوات البريطانية الى بلاده ثانية عام ١٩٤١ .

واتجهت السياسة الجديـدة ، الى وقف العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا ، بعـد ان انتهت الحرب باحتلال الحبشة ، ومحاولة جلب موسوليني الى الجهة الفرنسية البريطانية ، واحياء « اتفاقية ستريسا » لمواجهة تهديدات هتلر . واعلن ايدن في ١٨ حزيران

قرار الحكومة البريطانيـــة ، برفع الحظر الذي كان مفروضاً على ايطاليا .

وظهرت في تلك الاثناء مشكلة جديدة صرفت اهتمام الساسة الاوربيين اليها ، وهي الحرب الاهلية الاسبانية .

ثورات ودماء في مختلف مدن اسبانيا

لقد استرعت الحرب الاهلية الاسبانية ، انتباه ساسة اوروبا ، وكان لها اصداء مدوية في عدة بلدان اوروبية ، ومـن الامـور التي تجدر الاشارة اليها ، ان هذه الحرب جعلت «الشيوعية» في نظر الكثيرين من سكان اوربا تبدو «محترمة» كما شجعت افكار «الجبهات الشعبية» واصبح تأييد «الموالين» للحـكم الشيوعي في اسبانيا يعتبر «تحررياً» «وتقدمياً» بينما اعتبر تأييد الجنرال فرانكو «رجعياً» .

وقد قرر ايدن ومجلس الوزراء البريطاني قبول الاقـــتراح الفرنسي ، باتباع سياسة عدم التدخل ، تلك السياسة التي رؤي انتهـــاجها ، حتى لا يتعرض «ليون بلوم» رئيس وزراء فرنسا آنئذ للمضايقة ، لان وزارته الائتلافية اليسارية ، كانت تقوم على تأييد الجبهة الشعبية ، كما كانت تعتمد الى حد مـــا في بقائها على تأييد الشيوعية ، ولكن لما وقعت الحكومة الاسبانية الشرعية في ايدي الفوضويين والشيوعيين ، بدأ الفرنسيون يفكرون فيما يمكن ان تؤثره حكومة شيوعية في اسبانيا على فرنسا . فرأى الفرنسيون ان خير وسيلة لمنع نشوب حرب اهليـة في فرنسا ،

يمكن ان يمتد تأثيرها الى اكثر بلدان اوربا ، هي اتباع سياسة عدم التدخل .

وفي آذار عام ١٩٣٦ ، جرت انتخابات في اسبانيا ، احرز فيها ائتلاف يساري على شكل جبهة شعبية ، انتصاراً كاسحاً . وشكل السنيور «كيساريز كيروغا» ـ صديق وزميل السنيور كاباليرو الزعيم الشيوعي الاسباني ـ الحكومة الاسبانية الجديدة . وقد وقعت في الاشهر الاولى لعهد هذه الحكومة اضطرابات كثيرة ، كانت تثيرها المنظمات اليمينية والفاشية . وتميزت هذه الفترة بالاضرابات الكثيرة التي جعلت الكثيرين يشكون في مقدرة الحكومة على حفظ الامن والنظام ، فان الامور لم تفلت كلية من يد الحكومة . وكانت الحكومة على وشك السيطرة تماماً على زمام الامور ، عندما اغتال الارهابيون اليمينيون «كاستيلو» ، احد ضباط البوليس الذي كان معروفاً بميوله الاشتراكية .

وقد وقع حادث الاغتيال هذا في تموز عام ١٩٣٦ . وفي اليوم التالي للحادث ، حاولت جماعة من رجال البوليس ، اعتقال السنيور «كالفو سوتيلو» زعيم جناح اليمين المعارض ، وقد وقع اشتباك ادى الى مقتل سوتيلو . وقد كان هذا هو الحادث الذي الذي جعل الجيش يقرر الاستيلاء على السلطة .

وقامت عدة ثورات في عدد من المدن في وقت واحد ، حسب خطة كانت موضوعة مقدماً ، وسيطر الثوار على اشبيلية وقادس وسراقوسة ، وقد أخمدت الثورة في كل من مدريد

وبرشلونة ، ولكن بعد سفك دماء كثيرة . وكانت الحكومة قد ابعدت كثيراً من كبار العسكريين الى الخارج ، كاجراء احتياطي فعاد هؤلاء الى اسبانيا ، لقيادة الثورة العسكرية . وقد قتل قائد الثورة العسكرية ، الجنرال سانجورجو ، في حادث تحطيم طائرة في لشبونة ، فقام الجنرال « مولا » بجمع الجيش حوله في مراكش ، بينما طار الجنرال « فرانكو » — الذي كان يخدم في جزر الكناري — الى تطوان ، لقيادة حركة الجيش على اثر مقتل سانجورجو .

وأحرز الثائرون تقدماً سريعاً في بادىء الأمر ، فاستولوا على « باداغوز » في منتصف آب وتقدموا بسرعة في وادي « التاجة » مارين عن « تالافيرا » و « طليطلة » ووصلوا الى مشارف مدريد في منتصف تشرين الثاني .

وقد استفاد فرانكو ، منذ البداية من الاسلحة التي كانت تقدمها له المانيا وايطاليا ، وكان متفوقاً على الحكومة في السلاح والعتاد . ولكن مع نهاية العام ، بدأت قوات الحكومة تحصل على الاسلحة ، التي كانت تصنع في المراكز الصناعية في اسبانيا ، مثل برشلونة وبلباو ، وبوصول اللواء الدولي الى مدريد ، تأمن الدفاع عن العاصمة الاسبانية ، لاشهر كثيرة مقبلة .

وظلت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ، ماضيتين في سياستهما بعدم التدخل في الحرب الاسبانية ، وعملت الدولتان على تشكيل لجنة دولية تضم المانيا وايطاليا والبرتغال وروسيا ، للنظر في الحرب ، واجتمعت هذه اللجنة في لندن في اوائل

ايلول عام ١٩٣٦ .

وبينما كانت هذه الامور تجري ، قام ايدن في نهاية آب ١٩٣٦ بالتوقيع على معاهدة التحالف المصرية الانجليزية .

بريطانيا تدفع موسوليني الى الارتماء في احضان هتلر

نظراً لأهمية الأحداث المصرية في تاريخ ايدن فيما بعد ، يجدر بنا ان نضع امام القارىء موجزاً وافياً نوعاً ما ، لهذه المعاهدة المصرية الانجليزية التي وقّعت عام ١٩٣٦ .

فمن الناحية العسكرية ، نصت المعاهدة على نقـــل القوات البريطانية من القاهرة ، الى منطقة القنال ، لتبقى هناك مدة عشرين عاماً ، كما اتفق على تقليل عدد قوات الجيش الانجليزي في مصر كلما ازدادت قوة الجيش المصري .

ونصت المعاهدة ، كذلك ، على انشاء قاعدة بحرية بريطانية في الاسكندرية تقوم الحكومة البريطانية بدفع ايجارها لحكومة مصر . وجاء في المعاهدة ايضاً نص على زيادة قوات سلاح الجو البريطاني في مصر ، كما تعهدت الحكومة المصرية بموجبهـا ، ان تقوم ببناء طرق استراتيجية منـــاسبة ، لتسهل تنقل القوات البريطانية في مصر عند الضرورة .

هذه اهم النصوص العسكرية للمعاهدة . اما فيما يتعلق بالسودان فقد نصت المعاهدة على ما يلي : اتخاذ الاجراءات لتسهيل الهجرة

المصرية الى السودان ، وتعيين عدد من الموظفين المصريـــين في حكومة السودان ، بينهم موظف كبير في مجلس الحاكم العام . وموظفان كبيران للمالية والعدلية .

ونصت المعاهدة على مبدأ الغاء الامتيازات الاجنبية في مصر ونقل صلاحيات «المحـاكم القنصلية » ، التي كانت تنظر في قضايا الجـــرائم ، الى «المحـاكم المختلطة» التي كانت تنظر في القضايا المدنية فقط .

ونصت المعاهدة ايضاً على جمع الضرائب من الاجـانب ، كما تجمع من المصريين انفسهم ، والدعوة الى عقـــد مؤتمر دولي في القاهرة ، ينظر في امر الغاء المحاكم المختلطة في مصر .

وفي الاحتفال الذي جرى لتوقيع المعاهدة القى ايـدن كلمة جاء فيها : لقد سمعت من يقول ان هذه المعاهدة تحدد نهاية عهد من العلاقات الانجلو ـ مصرية ، ولكنني افضل اعتبارها بـداية عهد جديد لهذه العلاقات . ان هذه المعاهدة التي نوقعهـا ، هي ضمان واداة التعاون بيننا في المستقبل ، ونأمل ان يكون هـذا التحالف الذي نبدأه بالتوقيع على المعاهدة اليوم ، وسيلة لتمكين حكومتي بلدينا للعمل معاً بكل مودة لمصالحهما المشتركة ، ورمزاً للصداقة الدائمة بين الشعبين البريطاني والمصري .

وقد وقع على المعاهدة من الجانب المصري ، السيد مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوزارة المصرية في ذلك الحين .

وفي اليوم الاول من تشرين الثـاني عام ١٩٣٦ ، اعلـــن موسوليني في روما قيام محور روما ــ برلين . وقد جاء تشكيل

هذا المحور ، نتيجة محـــادثات اجريت اولاً في برلـين ، ثم في (بيرتشيز غادن) بين شيانو وهتلر ، في منتصف تشرين الاول . وقد اعترف الرايخ الالماني رسمياً بالامبراطورية الطليانيـــة في الحبشة . وهكذا ، فشلت بريطانيا ، لسوء سياستها ، في جعل موسوليني صديقاً او تحطيمه . والواقع ، ان السياسة البريطانية هي التي جعلت موسوليني يرتمي في أحضان هتلر .

ولقد حاولت بريطانيا بعد ذلك ، دونما جدوى ، ان تفصل موسوليني عن المحور . ففي مطلع عام ١٩٣٧ ، وقعت اتفاقيـة انجليزية – طليانيـة بخصوص البحر المتوسط في رومـا ، وقد وقعها عن ايطاليا، الكونت شيانو ، وعن انجلترا (السير اريك دراموند) السفير البريطـاني في روما . وكانت هـذه الاتفاقية « اتفاقية جنتلمان » ، تضمنت تأكيـدات من الدولتين بخصوص البحر الابيض المتوسط .

واعلن ايدن في مجلس العموم البريطاني ، ان الحكومـــة البريطانية مستعدة ان تتعاون في العمل المشترك للتهدئة السياسية ، والتعاون الاقتصادي . وقال ايدن ، ان هذين الامرين -- التهدئة السياسية ، والتعاون الاقتصادي يجب ان يسيرا جنباً الى جنب .

وقد تميز عام ١٩٣٧ بالهدوء نسبياً . ففي داخل بريطانيا ، كان اهم حادث وقع في صيف تلك السنة ،هو تتويج الملك جورج السادس . اما اهم حادث وقع في الخارج ، فكان اعدام المارشال « تخاشفسكي » مع بضع مئات من كبار الضباط في الجيش الاحمر .

وكان هتلر يزيد في تحصيناته في الراين ، كما كانت مصانعـه

الحربية قائمة في الانتاج على قدم وساق ، حتى لم يمض طويل وقت ، الا ومكنته هذه الاسلحة من السيطرة على اوربا. اما موسوليني ، فكان يركز نفسه في الحبشة ويقوي مركزه في بريطانيا .

واستقالت وزارة بولدوين بعد التتويج بوقت قصير ، وشكل الحكومة الجديدة ، كما كان متوقعاً ، نيفيل تشامبرلان . وقد اجرى تشامبرلن التغييرات الطفيفة التالية في وزارته الجديدة عن الوزارة القديمة : تولى سيمون وزارة المالية ، بدل الداخلية في الوزارة القديمة ، وتولى هور الداخلية ، كما تولى كوبر البحرية وهوربليشا الحربية .

هتلر يتطلع الى « فريسة » جديدة

في شباط عام ١٩٣٨ ، استقال ايدن من منصبه كوزير للخارجية ، ولا يمكن في الواقع فهم الاسباب الحقيقية التي جعلت ايدن يستقيل ، الا اذا تذكرنا الاحداث الاوربية التي وقعت آنئذ ، بصورة عامة .

اما هتلر ، فكان في عام ١٩٣٧ قد اتم « هضم » ما استولى عليه ، وكان يتطلع الى « فريسة » جديدة ، وكانت « الوجبة » الجديدة التي يضعها على « قائمة طعامه » هذه المرة ، هي النمسا . ويبدو ان ذلك لم يكن واضحاً لتشامبرلان او سيمون او هور او هاليفاكس او ايدن . انهم كانوا يقبلون ما كان هتلر يردده في مناسبات كثيرة ، عن انه ليس لديه اطماع اقليمية في اوربا .

وفي ١٣ شباط ١٩٣٨ ، استدعى هتلر الدكتور « شوزشنيغ »

مستشار النمسا الذي خلف دولفاس ، الى « بيرتشيز غـادن » والفي شوز شنيغ نفسه امام هتلر وجنرالاتـــه ، الذين كانوا يمسكون خرائط بايديهم ، يشيرون عليها بخطط غزو النمســا .

وقال هتلر للمستشار ان عليه ان يقوم باطـلاق سراح جميع النازيين المسجونين وان يترك الحرية الكاملة للعمل للحزب النازي في بلاده ، وان يسلم وزارة الداخليـة للهر سيس انكوارت ، ممثل هتلر الشخصي في النمسا .

ووجد شوز شنيغ نفسه مضطراً لقبول هذه المطالب المهينة ، فلم يعد بامكان النمسا الآن الركون الى المعاضدة الـتي حصلت عليها من ايطاليا في السنوات الاربع الماضية ، بعد مقتــل دولفاس ، كما ان « جبهة ستريسا » كانت في حكم « المتوفـاة » . اما موسوليني ، الذي خاصم فرنسا وانجلترا ، فلم يكن مستعداً ان يدخل في نزاع مع هتلر ، ولم يكن باستطاعته في الواقع القيام بذلك ، حتى و لو انه كان يرغب فيه .

وفي ٢٠ شباط قام هتلر باطلاع الريخشتاغ على ما قام بـه ، واعلن امامه انه من الضروري ان يحصل الملايين الالمان العشرة في النمسا وتشيكوسلوفاكيـا ، على حق تقرير مصيرهم .

ومن الاسباب الهامة التي جعلت ايدن يستقيل ، عجز الحكومة البريطانية في ذلك الحين عن اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمواجهـة تهديد المانيا المتزايد ومن الامور الاخرى التي ذكرها الكثيرون عن اسبــاب استقالة ايدن ، موضوع رسالة الرئيس روزفلت الامريكي للحكومة البريطانية ، الموضوع الذي اساء تشامبرلن

رئيس الوزراء ، التصرف فيه ، اثناء غيـاب ايدن في اجازة قصيرة في جنوب فرنسا .

وقد وصف السير ونستون تشرشل القصة كاملة في كتابه (العاصفة المتجمعة) كما يلي :

« في مساء ١١ كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، قام المستر سامنر ويلز ، وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، بزيارة السفير البريطاني في واشنطون ، وكان يحمـل رسالة سرية للغاية من الرئيس روزفلت ، الى المستر تشامبرلن . فقد كان روزفلت قلقاً جداً لتردي الوضع الدولي ، واقترح القيام بعمل ما ، وذلك بدعوة ممثلين عن بعض الحكومات الى واشنطون ، ليقوم معهم بدراسة اسباب المشاكل القائمة . وقبل الاقدام على هـذه الخطوة رأى روزفلت أن يستشير الحكومة البريطانية قبل ان تطلع اية حكومة اخرى على اقتراحه ، وان لا تتأخر في الاجابة على رسالته عن ١٧ كانون الثاني . واذا قبلت الحكومة البريطانيـة باقتراحه ، فسيقوم بالاتصال بحكومات فرنسا والمانيا وايطاليا .

ورفع السفير البريطاني ، السير رونالد لندسي ، الرسالة الى لندن ، وابدى رأيه بأن الخطة الاميركية ، تعتبر خطوة حقيقية لتخفيف حدة التوتر الدولي . وأضاف ان عدم دعم الحكومة البريطانية للفكرة ، سيؤثر على العلاقات الحسنة بـين انجلترا وامريكا . وبعثت الحكومة البريطانية بردها على رسالة الرئيس الامريكي ، وفق رأي تشامبرلين رئيس الوزراء ، بينما كان ايدن خارج انجلترا في الاجازة . وجاء في الرد البريطاني ان الحكومة

البريطانية ، اذ تقدر موقف الرئيس الامريكي ، ترغب في نفس الوقت ان توضح له جهودها الخاصة للوصول الى اتفاقية مع المانيا وايطاليا ، وخاصة مع ايطاليا .

وذكرت الرسالة ان حكومة بريطانيا على استعداد لان تعترف باحتلال ايطاليا للحبشة ، اذا رأت ان الحكومة الايطالية من جانبها ، على استعداد لأن تثبت رغبتها في اعادة الثقة ، والعلاقات الودية بين البلدين . واقترح تشامبرلن ، تأجيل الخطة الامريكية ، كي تواصل الحكومة البريطانية ، مساعيها الخاصة .

وقد جاء جواب الحكومة البريطانية مخيباً لآمال الرئيس روزفلت ، وعاد ايدن الى انجلترا مساء ١٥ كانون الثاني ، وانزعج جداً من تصرف تشامبرلن ، فأبرق رأساً الى السفير البريطاني في واشنطون ، ليعمل على تخفيف رسالة تشامبرلين « الناشفة » .

وبعث روزفلت برسالة اخرى الى الحكومـة البريطانية ، وافق فيها على تأجيل مشروعه . ولكنه ابدى قلقه من مسألة اعتراف انجلترا باحتلال ايطاليا للحبشة ، وذكر ان ذلك سيكون له تأثير سيىء جداً على سياسة اليابان في الشرق الاقصى ، وعلى الرأي العام الامريكي .

وهكذا ، فقد أظهرت هذه القضية انه كان هناك خلاف في الرأي بين ايدن وتشامبرلن . »

وفي ٢١ شباط عام ١٩٣٨ ، خاطب ايدن مجلس العمـوم البريطاني ، مبيناً الاسباب التي أدت الى استقالته .

خرق اتفاقيات واستخدام القوة لاهداف سياسية

قال ايدن في خطابه في مجلس العموم :

« ان هذه المناسبة مؤلمة جداً بالنسبة الي ، من الناحيتين الشخصية والسياسية ، ولا يوجد اي شخص يقوم بقطع الروابط التي تربطه بزملائه واصدقائه عن طيبة خاطر . ولكن ، يا سيدي الرئيس ، هناك ظروف ، تحتم ان تتغلب المعتقدات السياسية للانسان على جميع الاعتبارات الاخرى . وفي مثل هذه الظروف ، يكون الانسان بمفرده هو الحكم ، اذ انه لا يستطيع اي انسان ان يكون رقيباً على ضمائر الآخرين ، ولذلك فانني اقف امام المجلس اليوم ، لاوضح بايجاز الاسباب التي جعلتني استقيل من منصب وزير الخارجية .

ودعني قبل كل شيء اذكر بصراحة ووضوح ، ان هدفنا النهائي جميعاً ، وغاية السياسة الخارجية لهذه البلاد ، هي المحافظة على السلم في العالم ، ويجب ان تبقى هذه الغاية لسياستنا الخارجية بصورة دائمة . ولكي يظل السلم مستتباً ، فانه يجب ان يستند الى اسس من التجاوب الصريح والاحترام المتبادل بين الدول . واذا ما قبلنا نحن هذا الاساس لسياستنا الخارجية ، فيجب ان نكون دائماً مستعدين لان نجري مفاوضات مع كل الدول ، مهما كان شكل حكوماتها ، لايجاد التفاهم الدولي . ولكننا في نفس الوقت ، يجب ان نراعي اننا في الواقع نقوي الاسس التي تعتمد عليها الثقة الدولية ، ولا نقضي عليها . وهنا

آتي الى السبب المباشر الذي جعلني بكل اسف ، اختلف مع زملائي الوزراء .

فمن المعلوم لدى المجلس ، انه يجري الآن تبادل في وجهات النظر بين الحكومة الايطالية والحكومة البريطانية ، من اجل البدء في مفاوضات بين البلدين . وقد اقرت حكومتنا مبدأ اجراء هذه المباحثات ، منذ ان جرى تبادل الرسائل في الصيف الماضي ، بين رئيس الوزراء وبين موسوليني ، وليس هنالك خلاف في هذا الخصوص والخلاف القائم الآن هو هل تجري هذه المحادثات في روما ؟

وانا ارى ان موقف الحكومة الايطالية تجاه المشاكل الدولية عموماً ، وتجاه هذه البلاد بصورة خاصة ، لا يبرر القيام بذلك. فالحكومة الايطالية ، تقوم بشن حملة من الدعاية العنيفة ضد بلادنا في جميع العالم . وقد تعهدت انا بنفسي امام المجلس ، ان لا نشرع بالمحادثات في ايطاليا ، حتى تتوقف حملة الدعاية هذه ، وهي لم تتوقف بعد .

هذا بالاضافة الى ان المشكلة الاسبانية لم تحل بعد . وعلى حكومتنا ان ترفض الدخول في مفاوضات مع ايطاليا ، ومع اي حكومة اخرى ، اذا كنا لا نأمل في امكانية نجاحها ، او حتى اذا كنا غير متأكدين من نجاحها —وان هذه الامور غير متوفرة الآن .

وقد حاولت أثناء توليتي منصب وزير الخارجية عدة مرات العمل على تحسين علاقاتنا مع ايطاليا ، وفشلت جميع هذه

المحاولات ، بسبب المشكلة الاسبانية في الدرجة الاولى . وقد وقعت في كانون الثاني من العام الماضي ، الاتفاقية الانجلو - ايطالية ولكن،في نفس الوقت تقريباً، توجهت القوات الايطالية الى اسبانيا ، مما يعتبر خرقاً لروح الاتفاقية ، ان لم يكن خرقاً لنص صريح من نصوصها ، وتضمنت هذه الاتفاقية بشكل صريح بنداً يدعو لوقف حملات الدعاية ، ولكن هذه الحملات لم تقف . وفي الصيف الماضي ، جرى تبادل الرسائل بين رئيس الوزراء وموسوليني ، مما كان يبشر بتحسين العلاقات . ولكن الامور عادت فتردّت ، عندما وقع حادث العدوان على السفينة الانجليزية من قبل الطليان في البحر الابيض المتوسط ، كما ان الحكومة الطليانية قامت بتمجيد انتصارات قواتها في اسبانيا .

وانا ارى انه من واجب الحكومة عدم اجراء مباحثات مع ايطاليا ، لتحسين العلاقات بين بلدينا ، قبل احراز تقدم بخصوص المشكلة الاسبانية ، وذلك بانسحاب القوات الطليانية عملياً من اسبانيا . وانا انما أذكر القضية الاسبانية امام المجلس على سبيل المثال فقط ، فاننا لا نستطيع النظر فيها ، إلا على ضوء الوضع الدولي بصورة عامة ، وهو آخذ في التدهور يوماً بعد يوم ، فكم من اتفاقية دولية خرقت ؟ .. وكم مرة استخدمت القوة لتحقيق الاهداف السياسية ؟.. ولذلك ، فان على حكومتنا ان تقف موقفاً حازماً من القضايا الدولية ،بما فيها قضية اسبانيا ، وعليها ان لا تشرع في اجراء مفاوضات، قبل ان تكون مستعدة تماماً لذلك ، كما انها يجب ان ترفض المفاوضات ، تحت اي

نوع من الضغط او التهديد .

هذا هو رأيي تجـــاه هذه الامور ، ولكن رئيس الوزراء وزملاءه يرون غير ذلك . واحب ان اذكر هنا ، ان خلافاً كان قائماً منذ مدة ، بيني وبين رئيس الوزراء حول الشؤون الدولية الامر الذي كان يجب ان لا يكون ـ ولذلك فقـد استقلت من منصبي ، كي افسح المجال أمام وزير خـارجية آخر ، يكون منسجماً مع رئيس الوزراء والوزراء ، راجياً له التوفيق في اداء مهام منصبه » .

ولقد اثنت الصحافة البريطانية باختلاف نزعاتها على موقف ايدن ووجهت اللوم للحكومة . كما ان الصحافة الفرنسية فعلت نفس الشيء ، اما الصحافة الايطالية التي كانت توجهها الحكومة فقد ابدت ابتهاجها لاستقالة ايدن . هذا ، وقد ذكر إيــدن لاصدقائه في مجالسه الخاصة فيما بعد ، ان مسألة الرسالة التي بعث بها الرئيس روزفلت الامريكي الى الحكومـة البريطـانية ، كانت من العوامل الهامة التي جعلته يستقيل من منصبه .

ومهما يكن من امره ، فقد جاءت استقالة ايدن في وقتها ، وضمنت له شعبية هائلة ، وكانت من الاسباب الـتي جعلته يتولى منصب رئاسة الوزراء فيما بعد ، لانها « برأته » امام الرأي العام من نتائــج سوء سياسة « التهدئة » و « الجبن » التي اتبعتها حكومات ماكدونالد وبولدوين وتشامبرلن ـ تلك السياسة التي يتحمل ايدن بكل تأكيد تبعتها كبقية الآخرين ، لأنه كان مسؤولاً عنها ، تلك السياسة التي جرت بريطانيا والعــالم الى حرب

عالمية طاحنة .

حماقة ساسة بريطانيا اوقعت الشعب في كارثة

وبينما كانت هذه الامور تجري في لندن ، كانت احداث هامة تجري في القـــارة الاوربية ، ففي ١١ آذار ١٩٣٨ ، اجتازت جيوش هتلر الحـدود النمساوية ، على الرغم من ان شوزشنيغ لم يوافق على الشروط التي املاهـا عليه هتلر في بيرتشيز غادن في ١٢ شباط فحسب ، وانما وافق كذلك على عدم اجراء استفتاء شعبي في النمسا بخصوص ضمها الى المانيا .

وهكذا ، اصبحت كل من فرنسا وانجلترا على حافة الحرب، في الوقت الذي كان فيه ساسة بريطانيـا يتخاصمون فيما بينهم ، حول الشروط التي يجب اجراء المفاوضات بموجبها مع موسوليني بدل ان يكونوا يداً واحدة لمنع هتلر من القيام بما قام به .

وقد أمر رئيس الوزراء ان لاتشمل هذه المفاوضات اي شيء عن النمسا ، اذ ان تشامبيرلن كان « مستعجلاً » في اجراء هذه المفاوضات ، والواقع ان « اغتصاب » هتـلر للنمسا ، كان يهدد ايطاليا ، اكثر مما يهدد بريطانيا، الامر الذي يجعل المرء محتارا ، لان تشامبرلن لم يكن يريد شمول قضيـة النمسا في المفاوضات الانجلو - ايطالية .

وفي الحقيقة ، ان الزعماء السياسيين في بريطانيا في الفـترة التي سبقت الحرب الثانية ، كانوا يتأثرون كثـــيراً « بتقلب » الشعب البريطاني ، فقـــد كان كل من ماكدونالد وبولدوين

وهاليفاكس وهور وسيمون وايدن، ممثلين عن الشعب البريطاني اختارهم بنفسه ،وكانوا يتمتعون بتأييد أغلبية كبرى من الناخبين ومع ذلك ، فقد اوقعت « حماقة » هؤلاء السياسيين هذا الشعب في كارثة ، دفع ثمنها غالياً ، ولكن مسؤولية ذلك لا يتحملها هؤلاء الساسة وحدهم ، وانما يتحمل قسطاً كبيراً منها الشعب الذي انتخبهم ، والذي كان « يطبل » لهم « ويزمر » كلما اقدموا على عمل من الاعمال .

وفي ١٤ آذار ، جرت مناقشة في مجلس العموم البريطاني ، حول قضية النمسا ، وتكلم فيها ونستون تشرشل ، الذي انحى باللائمة على الحكومة ، وطلب منها ان تقوم بإعلان السياسة التي ستتبعها بكل وضوح ، وان تنال تأييد الأمة موحدة على هـذه السياسة . وندد تشرشل بحادث العدوان على النمسا ، وقال ان اوروبا تواجه برنامجاً من العدوان مرتباً ترتيباً كامـلاً ، ويجر الآن تنفيذه على مراحل ، تأتي كل مرحلة في وقتها المناسب .

وقال تشرشل ان من واجبنا ، ومن واجب البلدان الاخرى ايضاً ، اما اختيار الاستسلام والخضوع ، كما فعلت النمسا ، او اتخاذ الاجراءات الفعالة لدرء الخطر المحدق ، ولا يزال لدينـــا متسع من الوقت .

ودعا تشرشل الحكومة الى اتخاذ موقف حازم ، لحفظ السلم في اوربا ، والمحافظة على حريات الشعوب الاوربية ، وقال ان تباطئنا في اتخاذ اي اجراء ، سيجعلنا نفقـد اصدقاءنا ، ونصبح معرضين لخطر قد لا نتمكن من مجابهته .

وطالب تشرشل بتأليف حلف دفاعي مشترك من بريطانيا ودول اخرى ، ضد اي عدوان وفق ميثاق عصبة الامم، وقال ان هذا الحلف ، اذا ما وقع في هذه السنة ١٩٣٨ – سيحول دون نشوب الحرب ، والا فان الفرصة ستضيع .

ولم يشترك ايدن في مناقشة مجلس العموم هذه، ومن المستغرب انه لم يقم بتقديم اي توجيه للمجلس وللامة ، حول هذه الامور ، التي كان يعرف الشيء الكثير عنها .

والواقع ان ايدن ، بعد استقالته ، اصبح تحت تأثير بولدوين ، الذي أشار عليه بالانضمام الى كتلة تشرشل ، ولم يلبث ايدن ان انضم الى كتلة قوية من النواب المحافظين ، كانوا يعقدون اجتماعات سرية كل اسبوع . وكان رئيس هذه « الجماعة » – كما كانت تسمى – السير سدني هربرت ، ونائبه المستر ليواميري ، وكان من اعضائها هارولد ما كميلان، ودنكان ساندز ، ورتشارد كارتلاند ، ورونالد ترى ، ولورد كرانبورن، ورتشارد لو ، ولويس سبيرز وغيرهم . وقد انضم اليها كذلك داف كوبر بعد استقالته من الحكومة ، اثر حادثة ميونيخ .

وكانت هذه الجماعة تعنى بالدرجة الاولى بالشؤون الخارجية وشؤون الدفاع القومي. وقد ازدادت نفوراً من تشامبرلن كلما اقتربت الحرب ، وكانت استقالة حكومة تشامبرلن في ايار عام ١٩٤٠ نتيجة جهودهم وضغطهم .

وبينما كانت هذه الامور تحدث في انجلترا ، كان هتلر ماضياً في اعماله . فبعد ان اتم الاستيلاء على النمسا ، اخذ يتطلع

لافتراس تشيكوسلوفاكيا – البلد الصغير الراقي المسلح تسليحاً متقناً ، والذي كان يملك مصانع « سكودا » .

ولقد قدر هتلر ان فرنسا وانجلترا لن تجرآ على الوقوف في وجهه لتحقيق اطماعه ، ولذلك كان واثقاً من نجاحه . والغريب في الامر، ان الساسة البريطانيين،لم يتمكنوا من معرفة نوايا هتلر الحقيقية . واسرع تشامبرلان في بدء المحادثات مع ايطاليا ،وتمت هذه المحادثات بسرعة ، ولم تأت بشيء جديد الا قبول انجلترا ما قام بعمله موسوليني في اسبانيا والحبشة ، ووعد بريطانيا كذلك ان لا تقوم بتحصين قبرص دون مشاورة الدوتشي – ومقابل ذلك تكف ايطاليا عن حملة الدعاية التي كانت تشنها ضد بريطانيا في البحر الابيض المتوسط .

وكتب تشرشل رسالة الى ايدن ، تناول فيها هذه الاتفاقية الجديدة بين بريطانيا وايطاليا، واعتبرها نصراً مؤزراً لموسوليني، كما اعتبر وعد بريطانيا بعدم تسليح قبرص دون استشارة موسوليني كارثة كبيرة لبريطانيا .

وأبدى تشرتشل مخاوفه من ان هتلر سيتجه الآن الى شرق اوربا ، بعد ان حقق مطالبه في وسطها ، وطلب من ايدن ان يوافيه برأيه في هذه الامور .

وقد رد ايدن في رسالة بعث بها الى تشرتشل ،ووافقه فيها على ما ذكره من ان الاتفاقية الانجلو – ايطالية هي نصر محقق لموسوليني ، وقال ان موسوليني لم يعطنا شيئاً غير الوعود التي يقوم بنقضها فيما بعد .

وقال ايدن ان هذه الاتفاقية لا يمكن ان تكون مجدية قبل ان يغادر الطليان اسبانيا . وذكر ايدن ان اعتراف بريطانيا باحتلال الحبشة ، سيسيء الى سمعة الانجليز ، بين ملايين الملونين الذين يقعون تحت الحكم البريطاني . وقال انه يخشى ان يكون هذا الهدوء الذي يسود الوضع الدولي الآن ، هو كالهدوء الذي يسبق العاصفة ، التي توشك ان تهب عما قريب .

مؤتمر واتفاقية لمنع هتلر من احتلال تشيكوسلوفاكيا

في صيف عام ١٩٣٨ ، بدأ هتلر يعلن مطالبه في تشيكوسلوفاكيا ، ويثير الاقليات الالمانية فيها ، وكان واضحاً جداً انه ينوي الزحف على تشيكوسلوفاكيا ، و« تحرير » الالمان في اقليم السوديت . وقام تشامبرلين برحلاته الثلاث – الى بيرتشيز غادن وغوديسبرغ وميونيخ على امل ان يمنع هذا الزحف . وفي ميونيخ اجتمع تشامبرلن وهتلر وموسوليني ودالادييه – رئيس وزراء فرنسا – ولم يدع التشيكيون الى المؤتمر ، مع ان مؤتمر مونيخ انما اجتمع لتقرير مصيرهم . وبعد ان اتفق الاربعة « الكبار » في ميونيخ ، عمل سفير انجلترا وفرنسا في براغ على اقناع الحكومة التشيكية ان تقبل بقرارات المؤتمر ، الامر الذي جعل تشيكوسلوفاكيا تحقد كثيراً على فرنسا ، لانها كانت رسمياً حليفة لها . وقد تم الاتفاق في المؤتمر على ضم اقليم السوديت الذي يسكنه ثلاثة ملايين ونصف المليون من الالمان ، الى المانيا ، حتى لا يقوم هتلر باحتلال تشيكوسلوفاكيا بالقوة .

وقد استقال داف كوبر من الوزارة اثر المؤتمر، وألقى خطاباً مؤثراً جداً في مجلس العموم عن اسباب استقالته ، وكان كوبر خلال الأزمة ، يحث زملاءه الوزراء على «تعبئة» الاسطول البريطاني ، ليكون على اهبة الاستعداد للعمل فوراً ، وقد استجابت الوزارة ، بعد ايام كثيرة لطلبه .

وعلقت جميع صحف انجلترا واوربا على اتفاقية ميونيخ . فأثنت «التايمز» على سياسة « التهدئة » التي اتبعت في ميونيخ لمنع نشوب الحرب ، ودعت الى المضي في تطبيقها ، ولكنها في نفس الوقت طالبت ان تضمن الحدود الجديدة لتشيكوسلوفاكيا التي جرى الاتفاق بين الدول الاربع الكبرى على حسابها .

أما «الديلي تلغراف» فقالت ان ثمن السلم الذي حققته اتفاقية ميونيخ كان غالياً جداً . واعربت الجريدة عن عدم تفاؤلها بالمستقبل ، وطالبت الحكومة بتقوية وسائل الدفاع القومي وخاصة الجوي .

وقالت «الدايلي هيرالد» ان تشيكوسلوفاكيا ذهبت ضحية هذا السلم ، الذي دفع ثمنه غالياً ، ودعت – من اجل استمرار السلم – الى ايجاد مقاومة جماعية مشتركة ضد أي عدوان في المستقبل ، واعادة النظر في الاتفاقية القديمة ، للعمل على ازالة جميع أسباب النزاع فيها من مطالب الاقليات وما شاكل ذلك .

اما تعليق صحيفة «النيويورك هيرالدتريبيون» فكان كما يلي : ما يريد العالم ان يعرفه الآن ، هو هل ان نجاح هتلر ، سيجعله يقدم

على عدوان آخر ، معتقداً انه يستطيع ان يفعل ما يريد ، دون ان تتخذ بريطانيا وفرنسا اية اجراءات لمنعه ، ام انه سيرضى بما حصل عليه ؟»

وقد استقبلت اتفاقيـة ميونيخ ، بصورة عامة ، بالثناء من جميع الاوساط لأنها ، كما بدت ، جنبت العالم الحرب . ولكن ثبت بعد وقت قصير ، ان شبح الحرب لم يبتعد ، وقد استقبل تشامبرلن لدى عودته من ميونيخ ، استقبـالاً حماسياً واعلن للجماهير المبتهجة انه قد عاد لبريطانيا «بسلم شريف». ونوقشت اتفاقية ميونيخ في مجلس العموم البريطـاني ، واشترك ايدن في المناقشة : فأثنى على مجهود رئيس الوزراء لانه جنب البلاد الحرب ، ولكنه انتقد بشدة عدم اخذ رأي تشيكوسلوفاكيا في الامر وطالب الحكومة بأن تتخذ الاجراءات السريعة لتسليح البلاد والعناية بشؤون الدفاع القومي ، لانه لم يكن مطمئناً للمستقبل ، كما طالب ايدن الامة ان تنظم نفسها ، لتتمكن من مواجهة اي تحدٍ في المستقبل . وقال ايدن ان الاستمرار في اتبـاع سياسة «التنازلات» بين الحين والآخر ، يعني «اذلال» بريطانيا والامة البريطانية .

واشترك تشرشل في المناقشة ، وتنبأ مما سيحدث في المستقبل . وقال ان ما اتفق عليه في بيرتشيز غادن وغوديسبرغ وميونيخ ، ينطبق تماماً على الحادثة التالية : طلب شخص يشهر مسدسه في يده من آخر أن يعطيه جنيهاً ، فأعطاه الجنيه ، ثم عاد فطلب منه جنيهين ، وهو لا يزال يشهر المسدس ، ولم يكن مع الآخر سوى

جنيه و١٧ شلن و٦ بنسات ، فتنازل «الطالب» عن اخذ المبلغ، بعد ان وعده الآخر بتحصيل بقية المبلغ في المستقبل .

وقال تشرشل ان التشيكيين ، لو تركوا وشأنهم لحصلوا على نفس شروط اتفاقية ميونيخ ، ان لم يحصلوا على شروط افضل منها ، فماذا حقق لهم تشامبرلن؟.

وقال تشرشل ان بلادنا اصبحت تحت تأثير المانيـا النازية ، وهي تدور في فلكها ، ومن اجل ذلك فإنني اطالب بالعناية الفائقة بشؤون دفاعنا القومي، وبصورة خاصة سلاحنا الجوي . وكذلك العمل على تجميع اكبر عدد ممكن من الدول في جبهـة مشتركة ، والدخول في احلاف ومعاهدات دفاعية للوقوف في وجـه اي عدوان في المستقبل .

واستمرت المناقشة في مجلس العموم ثلاثـة ايام ، جرى التصويت بعدها بالثقة على الحكومة ، ونالت الحكومة الثقة على ما قامت به ، ولكن عشرين نائبـاً من نواب الحكومة امتنعوا عن التصويت ، بينهم تشرشل وايدن وكوبر وماكميلان ودنكان ساندز .

وفي اوائل تشرين الثاني عـام ١٩٣٨ ، قـام احد اليهود البولنديين ، وكان قد طرد من المانيا ، باغتيال الهر فون رات ، احد الدبلوماسيين الالمان في السفارة الالمانيـة في باريس . وبدأ هتلر حملته الاضطهادية ضد اليهود في المانيا .

هتلر يضحك على ذقن تشامبرلن

في الاشهر الاولى لسنة ١٩٣٩، بدا ان الهدوء يخيم على الاوضاع الدولية ، حتى ان السير صامويل هور اخذ يتحدث عن امكانية حلول « عصر ذهبي » .

ونشرت مجلة « البانش » الهزلية رسماً كاريكاتورياً ، صورت فيه « جون بول » وهو يستيقظ مذعوراً من حلم مخيف رآه في نومه ، ولكنه ينظر من خلال النافذة فيرى ان مخاوف الحرب قد اختفت ، فيعود ويتمالك نفسه .

وفي نفس اليوم الذي ظهر فيه هذا الرسم ، ضرب هتلر ضربة جديدة ، اذ ان الجيش الالماني دخل مدينة براغ ، واعلن الفوهرر ضم جميع تشيكوسلوفاكيا – عدا الاقسام الشرقية التي انتزعتها بولندا لنفسها – الى الرايخ . وهنا طار صواب تشامبرلن ، وبدأ « يفتح عينيه » .. لقد شعر ان هتلر قد « ضحك على ذقنه » وخدعه شخصياً ، وكان اول رد فعل قام به تشامبرلن هو انه حاول التقليل من أهمية الحادث ، وابدى أسفه امام مجلس العموم ، ولكنه لم يقم بتقديم اية مقترحات ، لتعديل الاوضاع ، كما انه لم

ينطق بكلمة واحدة من التعزية للتشيكيين، الذين استعبدهم هتلر، لانهم عملوا بنصيحة تشامبرلن .

ولكن تشامبرلن أدرك بسرعة ان الرأي العام البريطاني ناقم جداً ، فلقد أثار عمل هتلر جميع الطبقات وجميع الاحزاب، مما اضطر تشامبرلن الى الاعتراف بأن سياسته قد فشلت ، وان هناك حاجة ملحة لاتخاذ اجراءات جديدة حاسمة ، وخطب في بيرمنجهام بعد يومين في الجماهير ، وقال ان سياسة التهدئة قد بنيت على اساس التأكيدات التي قدمها هتلر في ميونيخ ، من ان السوديت هي ما يطمح اليه هتلر في اوربا فقط ، وتساءل رئيس الوزراء في خطابه : «هل ان ما اقدم عليه هتلر هو نهاية مغامرة قديمة، أم انه بداية مغامرة جديدة ؟ هل هذا هو آخر هجوم على دولة صغيرة ، ام ان هجمات اخرى ستتبعه ؟ هل هذا العمل في الواقع خطوة في سبيل محاولة السيطرة على العالم بالقوة ؟ » وهذه الاسئلة ، على اي حال ، كان مفروضاً في رئيس وزراء بريطانيا ان يعرف الاجابة عنها .

واقترح ايدن في المناقشة التي دارت حول الموضوع في مجلس العموم ، ان الاوقات اصبحت « عصيبة » جداً ، وان الحكومة يجب ان توسع ، بحيث تشمل أعضاء من جميع الاحزاب ، ولم يكن هذا الاقتراح عملياً ، لان احداً من حزب العمال لم يكن مستعداً ان يعمل مع تشامبرلن . واقترح رأي آخر في المناقشة، وهو الشروع في محادثات مع روسيا، لايجاد حلف دفاعي. واقدمت الحكومة على هذا العمل وجرت المفاوضات طوال الصيف في

موسكو بهذا الخصوص .

وفي تلك الاثناء ، أعلنت الحكومة البريطانية انها تضمن استقلال بولندا ، وتبع هذا الاعلان ، اعلان ضمانات اخرى لليونان ورومانيا ، عقب غزو ايطاليا لألبانيا ، واصبح واضحاً جداً ، ان اية خطوة جديدة يقدم عليها هتلر ، تعني انطلاق شرارة الحرب .

وقد ذكر اللورد تامبلورد في كتابه « السنوات التسع المضطربة » ان الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا ، كان أمراً غير ممكن من ناحية عسكرية ، بسبب جغرافيتها وقال انه لولا جغرافية تشيكوسلوفاكيا ، لامكن المحافظة عليها . ولكن الدول الثلاث التي « ضمنت » بريطانيا الآن استقلالها ، لم تكن في وضع دفاعي – ضد هجوم الماني – أحسن من وضع تشيكوسلوفاكيا ، بل كانت أسوأ منها ، وقد تبين لتشامبرلن وهور وسيمون وهاليفاكس ان الوضع خطير جداً ، حتى ان مجلس الوزراء اقتنع بضرورة اعلان « التعبئة » بصورة محدودة ، وقد عمل هور بليشا وزير الحربية عدة أسابيع في المجلس حتى اقنعه بالاقدام على هذه الخطوة ، ولم يوافق مجلس الوزراء على ذلك إلا عندما هدد وزير الحربية بالاستقالة ، وقد صوت حزبا العمال والاحرار في مجلس العموم ضد هذا القرار ، على اعتبار انه كان غير كاف لمواجهة اخطار الحرب ، التي كانت تطل في الافق ، وكانا يريدان اعلان التعبئة العامة الاجبارية .

أما ايدن، فقد عمل منذ استقالته من منصب وزير الخارجية ،

على تمكين مركزه في مجلس العموم ، كما انه قام بعدة رحلات في الخارج ، فقد زار الولايات المتحدة في كانون الاول عام ١٩٣٨ ، كما انه القى عدة خطابات في باريس في أوائل صيف ١٩٣٩ . وعندما اكفهر الجو الدولي ، واصبحت نار الحرب تحدق من كل جهة ، عرض ايدن خدماته على وزارة الحربية ، حيث عين برتبة ماجور في احدى الوحدات التابعة لفيلق البنادق الملكي ، الذي خدم ايدن في سلكه في الحرب العالمية الاولى .

وفي ٢٤ آب عام ١٩٣٩ وردت الاخبار ان ربنتروب قد وصل الى موسكو ، وانه وقع معاهدة عدم اعتداء مع مولوتوف ، العمل الذي ضمن به هتلر عدم خوض الحرب في جبهتين . لقد كان الروس ، طوال الوقت الذي كانت المحادثات فيه جارية مع وليام سترانج مبعوث الخارجية البريطانية ، يجرون محادثات مماثلة مع الالمان . ولم تكن انجلترا تملك الوسائل لاجبار بولندا على الموافقة بالسماح للجيش الاحمر بالمرور من اراضيها في حالة نشوب حرب مع المانيا ، كما كان يطلب الروس ، كما ان انجلترا نفسها لم تكن مستعدة ان توافق على ذلك . لقد اصبحت الحرب ، في الواقع ، في حكم المؤكدة ، واخذ العالم ينتظر بهدوء بدء اطلاق النار . ولم يطل الانتظار ، ففي ايلول عام ١٩٣٩ ، بدأ هتلر هجومه الكاسح على بولندا ، وبعد يومين ، اعلنت بريطانيا الحرب على المانيا ، وتبعتها فرنسا في اعلان الحرب بعد عدة ساعات - وبدأت الحرب العالمية الثانية .

بدء هجوم الجيش الالماني على روسيا

وقد اجري تعديل في الوزارة البريطانية فور اعلان الحرب ، حيث انضم الى الوزارة الجديدة المستر تشرشل ، الذي تولى وزارة البحرية ، مع مقعد في « مجلس وزراء الحرب » الذي كان يتألف من تشامبرلن رئيس الوزراء ، وسيمون وزير الخزانة ، وهاليفاكس وزير الخارجية ، واللورد تشاتفيلد وزير الدفـاع ، وهور بليشا وزير الحربيـــة ، وكنجزلي وود وزير السلاح الجوي ، وهور اللورد حامل أختام الملك ، واللورد هالكي الوزير بلا وزارة -- اما ايدن فقد تولى وزارة شؤون الدومنيون البريطاني .

وكان ايدن اهلاً للمنصب الجديد الذي تولاه ، فقد حصل على مران ديبلوماسي كبير في الماضي ، في المناصب التي تولاها . وفي اوائل الحرب ، انعقد مؤتمر في لندن لجميع ممثلي بلاد الدومنيون ، وبعد المؤتمر رافق ايدن الممثلين في جولة لتفقد جبهة الحلفـاء في فرنسا ، وقد اولى ايدن ، طبيعياً ، عنايته الفائقة لرعاية شؤون جنود الدومنيون ، فقـد استقبل اول كتيبة من كتائب الجيش الكندي لدى وصولها الى بريطانيا ، وطار الى السويس في اوائل عـام ١٩٤٠ ، ليكون في استقبال اولى الفرق الاسترالية ، التي كانت تصل الى مصر .

وفي ١٠ ايار ١٩٤٠ ، تولى المستر ونستون تشرشل رئـاسة الوزارة البريطانية ، وانتقل ايـــدن من وزارة الدومنيون الى وزارة الحربية ، وقد ظل ايدن في هذا المنصب حوالى ستة اشهر

جرى خلالها تشكيل وحدات متطوعي الدفـاع المحلي ، التي اسماها تشرشل « الحرس الوطني » .

وفي تشرين الاول من نفس السنة ، أوفـد تشرشل وزير حربيته ايدن الى مصر ، لتفقد أحوال القوات المسلحة في الشرق الاوسط . وقد اجرى ايدن محادثات مـع الجنرال « ويفل » في القاهرة ، طار بعدها الى الخرطوم ، حيث اجتمع بالجنرال « سماتس » واشترك واياه في وضع الخطط لارسال فرق من جيش جنوب افريقيا الى الصحراء الليبية . وبينما كان ايدن في الخرطوم وصلته اخبار الهجوم الطلياني على اليونان .

وقد طلب تشرشل من ايدن أن يتوجه رأساً الى القاهرة ، لدراسة الوضع في اليونان وليعمل مع قيادة الشرق الاوسط على وضع الخطط لانتهاج سياسة حربية جديدة في الصحراء الغربية ، بدل الانتظار لمواجهة الطليان في معركة حاسمة عندما يهاجمون مرسي مطروح . وقد وثق ايدن علاقاته مع ويفل وويلسون ، قائد جيش الصحراء ، وارسل ايدن من القاهرة برقية الى تشرشل احاطه فيها علماً بالوضع العسكري في المنطقة ، وقد ذكر ايدن في برقيته انه ليس بالامكان ارسال قوات من الشرق الاوسط ، جوية أو برية ، يمكن ان تؤثر على مجرى الحرب في اليونان ، لان ذلك يعرض مركز الحلفاء في الشرق الاوسط الى الخطر .

وذكر ايدن كذلك ان القوات الحليفة قد تمكنت ، بعد جهود جبارة ، من انشاء قوات دفاعية كافية في الشرق الاوسط ، وستكون هذه القوات في المستقبل القريب في وضع يمكنها من

اتباع خطة الهجوم ، التي ، اذا ما نجحت ، سيكون لها تأثير بعيد على مجرى الحرب بصورة عامة . وقال ايدن ان خير وسيلة لمساعدة اليونان ، هي ضرب ايطاليا ، ويمكننا القيام بذلك من مناطق معينة ، وسأبحث تفاصيل الخطط التي اتفقنا عليها، لدى عودتي الى الوطن .

وعاد ايدن الى لندن في ٨ تشرين الثاني ، حيث عرض على مجلس الوزراء تفاصيل خطط الهجوم في الصحراء ، وقد نالت هذه الخطط قبول واعجاب جميع الاعضاء ، وبعد اسبوع من عودة ايدن ، بدأ « ويفل » و « ويلسون » حملتهما في الصحراء واحتلوا بسرعة سيدي براني ، ومرسى مطروح ، وطبرق وبنغازي . وكان هذا النجاح الحربي معززاً لمركز ايدن مع رئيس الوزراء .

وفي ١٢ كانون الاول توفي اللورد لوثيان ، سفير بريطانيا في واشنطون ، الذي كان له فضل كبير في توقيع اتفاقية « الاعارة والتأجير » مع الولايات المتحدة ، وعرض تشرشل منصب سفير بريطانيا في اميركا على اللورد هاليفاكس وزير الخارجية ، وقبل هاليفاكس المنصب الجديد على مضض ، وبذلك خلا منصب وزير الخارجية ، وقام تشرشل بإسناده الى ايدن . وقد سر الرئيس روزفلت والمستر هل ـ وزير الخارجية الاميركية ـ لتعيين هاليفاكس في هذا المنصب ، كما ان هذا التعيين لاقى ترحيباً في بريطانيا نفسها ، نظراً لاهمية المنصب خلال الحرب .

وكان ارجاع ايدن الى الخارجية عملاً له دلالته ، اذ ان

تشرشل كان على وفاق تام في الرأي مع ايـــدن في السنوات السابقة، واتفق واياه على عدم التصويت على اتفاقية ميونيخ الى جانب الحكومة ، وكان واضحاً جداً ان تشرشل كان يريـــد ارجاع الاشخاص الذين يشاركونه نفس ارادته وتفكيره ، الى المراكز الحساسة في الدولة . وتوجه ايـدن الى الشرق الاوسط ثانية ، بعد قليل من توليه وزارة الخارجية . وكان موسوليني قد « ورط » نفسه جداً في اليونان ، وبدا واضحاً انه سيحتاج في وقت قريب الى نجدة من « هتلر » . وقد خول ايدن صلاحيات ابرام ما يراه مناسباً في الشرق الاوسط دون الرجوع الى رئيس الوزراء او الى مجلس وزراء الحرب . ووصل ايدن الى القاهرة في اوائل آذار عام ١٩٤١ ، وكان يرافقه السير جون ديل رئيس هيئة الاركان الامبراطورية . وقد امتدت زيارة ايدن المنطقـة أكثر مما كان مرتباً لهـــا ، بسبب الهجوم الالماني على اليونان ويوغوسلافيا .

وفي ٢٢ حزيران عام ١٩٤١ ، بدأ هتلر هجومه على روسيا، بعد ان تأكد من انه لن يتمكن من غزو بريطانيـا ، وكان عمل هتلر هذا مفيداً للحلفاء ، الذين كانوا قد فتحوا جبهة في البلقان، وكانت حملة هتلر على البلقـــان قد اضطرته الى تأجيل هجومه على روسيا ، خمسة أو ستة أسابيع ، مما كان له أبعد الاثر في نتيجة الحملة ، فلو ان هتلر هاجم روسيا في أوائل أيار ، بدلاً من مهاجمتها في الثلث الاخير من حزيران ، لكان من الممكن ان يحتل لينينغراد وموسكو وستالينغراد ، ولكانت نتيجة الحملة

الروسية غير ما كانت .

وقد ساعدت بريطانيا بكل قواها روسيا، التي أصبحت عن طريق الصدفة من كتلة الحلفاء ، وكان ايدن اول سياسي بريطاني يزور روسيا أثناء الحرب ، حيث بدأت المحادثات في موسكو في ١٦ كانون الاول، ولما عاد ايدن الى انجلترا في نهاية كانون الاول ،قال في حديث ألقاه بالراديو ان محادثاته مع مولوتوف وستالين في الكرملين قد لاقت نجاحاً باهراً .

أخبار محزنة عن هزيمة المحافظين في الانتخابات

ولما طار المستر تشرتشل رئيس الوزراء الى الولايات المتحدة في حزيران عام ١٩٤٢ ،جرت حادثة يجدر بنا الاشارة اليها هنا. وهى حادثة فريدة في تاريخ انجلترا الدستوري. ورغم انها لم تذع على الملأ في ذلك الحين ، الا نها اثبتت بصورة رسمية ، أن تعيين ايدن لوزارة الخارجية خلفاً لهاليفاكس ، كان يعني ظهور خليفة لتشرشل في قيادة حزب المحافظين . فقد قام رئيس الوزراء بناء على طلب الملك جورج السادس ، بتقديم رأيه للملك ، حول موضوع من يستدعي الملك لتشكيل الوزارة في حالة موت تشر شل. فبعث تشرشل برسالة الى الملك ، نصحه فيها بالعهد الى ايدن بتشكيل الوزارة ، في حالة موته خلال السفرة التي سيقدم عليها وقال تشر شل في رسالته ، ان ايدن سيتمكن من ادارة شؤون الدولة بحزم ودراية ، تتطلبها هذه الظروف العصيبة .

وفي تشرين الاول من هذه السنة ايضاً ، قام ايدن بزيارة

اخرى لموسكو ، ولما عاد الى لندن ، ذهب هو وتشرشل الى القاهرة ، لحضور المؤتمرات التي انعقدت في تشرين الثاني وكانون الاول ، في القاهرة وطهران . وبعد انتهـاء المؤتمرات مكث رئيس الوزراء في الشرق الاوسط بضعة ايام ، أجرى خلالهـا مباحثات مع الجنرال ايزنهاور .

وفي نهاية عام ١٩٤٢، وقف ايدن امام مجلس العموم البريطاني، لاطلاعه بقدر ما تسمح به ظروف « سرية » الحرب على نتائج هذه المؤتمرات، وقال ايدن للمجلس ان المؤتمر الاول في القاهرة، كان يتعلق بموضوع متابعة الحرب ضد اليابان. أما مؤتمر طهران، فقد جاء فيه البحث بخصوص المضي في حرب المانيا . وقد جرت في المؤتمر الثاني في القاهرة مباحثات مع الرئيس الامريكي ، ووزير خارجية تركيا . وكان معظـم البحث في المؤتمرين ، الاول في القاهرة والثاني في طهران ، يتعلق بالشؤون العسكرية ، حيث وضع القادة العسكريون الخطط لتحطيم قوى الخصم .

وكان القسم الاخير من عام ١٩٤٤، بعد قيام الحلفاء بعمليات الغزو للقارة الاوروبية ، مليئاً بالاعمال بالنسبة لايدن وقد قام بأسفار كثيرة. ففي أيلول، سافر ايدن مع تشرشل الى كويبك في كندا ، حيث اجتمعـا بالرئيس روزفلت الامريكي ، وبرئيس وزراء كنـدا المستر ماكنزي كنج . وفي تشرين الاول سافر ، بصحبة تشرشل ايضاً الى موسكو ، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي يزور فيها ايدن موسكو اثناء الحرب . وعاد تشرتشل من موسكو رأساً الى لندن ، امـا ايدن فقد عرج في طريقه على

القاهرة وأثينا وايطاليا .

وكانت خبرة ايدن ، وسلطته ، تزداد من هذه السفرات ، واصبح يحتل مركزاً « مرموقاً » بين زملائه في مجلس الوزراء. وقد أصبح ايدن ، منذ تشرين الثاني عام ١٩٤١ ، يمارس عمل زعيم الاكثرية في مجلس العموم ، بالاضافة الى مهامه كوزير الخارجية .

وفي ١١ تشرين الثاني، طار ايدن وتشرشل الى باريس لحضور احتفالات توقيع الهدنة ، وفي ٢٥ كانون الاول ، يوم عيد الميلاد، سافرا معاً الى أثينا ، حيث نجحا في انقاذ اليونان من الوقوع في أيدي الشيوعيين . وفي شباط عام ١٩٤٥ اشترك ايدن في مؤتمر مالطة . وفي ١٢ نيسان ١٩٤٥ ، توفي روزفلت فجأة ، فطار ايدن من واشنطون الى سان فرنسيسكو، حيث المؤتمر الذي كان يعد ميثاق هيئة الامم المتحدة . واصيب ايدن أثناء وجوده في سان فرنسيسكو، بمرض في معدته، اضطره لملازمة الفراش أثناء معظم فترة الانتخابات ، التي جرت في بريطانيا عقب الحرب . وقد تلقى ايدن أثناء مرضه ، تأكيد نبأ وفاة ابنه سيمون، أثناء قيامه بعمليات سلاح الجو البريطـاني في بورما . وبعد شهر ، استسلمت المانيا ، وانتهت الحرب في اوربا . فانحلت الوزارة الائتلافية ، وتشكلت حكومة موقتة ، ظل ايدن فيها وزيراً للخارجية ، قامت بحل البرلمان ، واجريت انتخابات جديدة في ٥ تموز عام ١٩٤٥ .

وكان ايدن يرافق تشرشل في موتمر بوتسدام اثناء الانتخابات

ولما عادا الى بريطانيا في ٢٦ تموز ، واجها الاخبار المحزنـة عن هزيمة المحافظين الكبرى في الانتخابات. فقد حصل العمال في هذه الانتخابات على ٣٩٢ مقعداً في المجلس بينما حصل المحافظون والاتحاديون على ١٩٨ مقعداً فقط ، ونال الاحرار ١٥ مقعـداً والمستقلون ١٤ مقعداً والشيوعيون مقعدين .

فاستقال تشرشل من رئاسة الوزارة ، التي شكلهـا العمال برئاسة اتلي ، وعاد ايدن الى العمل في صفوف المعارضة في المجلس مع حزبه .

خلاف بين ايدن ودالاس

واستغرق اعادة بناء كيان حزب المحافظين وقتاً طويلاً ، كما استنزف جهداً كبيراً ، وقد قام بعمل اعـــادة تنظيم الحزب اللورد وولتون . اما رسم السياسة الجديدة للحزب فقداضطلع بها المستر بتلر ، ولم يشترك ايدن في هذا العمل ، لانـه ليس من اختصاصه ، اذ انه قضى معظم حياته السياسية يعمل في الشؤون الخارجية . ولذلك كانت خبرته في الشؤون الداخلية ضئيلة جداً ، ومع ذلك ، فقد ظل ايدن يعتبر خليفة لتشرشل لا ينازعه في ذلك احد ، وعندما سافر تشرشل ، في نهاية عـام ١٩٤٥ الى اميركا لقضاء اجازة ثلاثة اشهر هناك ، أنيـــط عمـل زعامة المعارضة في مجلس العموم بإيدن .

وفي نهاية عام ١٩٤٧ ، قام ايـدن بجولة في الشرق الاوسط تفقد خلالها حقول النفط في ايران ، كما زار الملك عبد العزيز بن سعود في المملكة العربية السعودية ، الذي قدم له هدية ، كانت عبارة عن سيف مرصع بالجواهر . ووجد ايضاً نفسه مريضاً بعد عودته من هذه الرحلة ، واجريت له عملية جراحية ، تماثـــل

بعدها للشفاء بسرعة ، واستأنف نشاطه في صفوف المعارضة في المجلس ، كما حضر مؤتمر حزب المحافظين في « لاندودنو » والقى خطاباً عن الشؤون الخارجية . وفي اوائل عام ١٩٤٩ قام ايدن برحلة كبيرة ، زار خلالها كندا واستراليا ونيوزيلاندا والملايو والهند والباكستان ، وفي السنة التالية ، زار كندا والولايات المتحدة مرة اخرى .

وبعد عودته من الرحلة بوقت قصير جرت الانتخابات العامة في تشرين الاول ١٩٥٠ وقد احرز المحافظون فيها مكاسب جيدة ، بالرغم من ان العمال ظلوا اكثرية في المجلس ، ولكن اكثريتهم كانت بستة مقاعد فقط ، بعد ان كانوا في المجلس السابق اكثرية بـ ١٤٧ مقعداً ، وقامت حكومة العمال بحل المجلس الجديد بعد ثمانية عشر شهراً من التئامه ، واجريت انتخابات جديدة في تشرين الاول ١٩٥١ ، وفاز هذه المرة المحافظون بأكثرية ١٦ مقعداً في المجلس ، وعاد تشرشل مرة اخرى الى (١٠ داوننغ ستريت ـ مقر رئاسة الوزارة) بعد غيبة امتدت ست سنوات وعاد ايدن الى وزارة الخارجية في الحكومة الجديدة .

وبعد اسبوع من عودته الى الخارجية ، طار ايدن الى باريس لحضور محادثات نزع السلاح ، التي كانت تجري في الجمعية العمومية لهيئة الامم . وفي كانون الاول ١٩٥١ صحب ايدن رئيس الوزراء الى باريس ، حيث اجتمعا بالزعماء الفرنسيين ، بليفان وشومان ، وقد قابلا الجنرال ايزنهاور في مقر قيادة حلف شمال الاطلسي ، وفي نهاية الشهر سافرا بالبحر الى امريكا ، حيث بحثا مع ترومان

مختلف الشؤون العسكرية والسياسية ، في مؤتمر انعقـــد في واشنطون في اوائل كانون الثاني عام ١٩٥٢ . وفي أثناء وجود ايدن في امريكا ، زار جامعة كولومبيا ، حيث القى محاضرة عن الوضع الدولي تناول فيها شؤون الشرق الاوسط فقال :

« دعوني اوضح موقف بلادي في هذه المنطقة من العـــالم ، فنحن ليس لدينا اطماع استعمارية فيها ، ولم نعمل على اضافة انش مربع الى ممتلكاتنا نتيجة للحرب ، وليس لنا أهداف أنانيــة . وسياستنا تجاه مصر ، هي ان قناة السويس ممر مائي للعالم ، حرية الملاحة فيها امر مهم بالنسبة للعالم ، ونحن لا نقوم بحراسة القناة لانفسنا ، وان السياسة التي عرضناها مؤخراً على مصر ، اتفقنا عليها مع الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ، وهي تجعل من مصر دولة شريكة لنا ، وعلى قدم المساواة معنا ، ونحن نبغي من اية تسوية في المنطقة ، تأمين حرية الملاحة في القناة ، وضمـان أمن الشرق الاوسط بصورة عامة » .

وفي ٦ شباط عـــام ١٩٥٢ ، توفي الملك جورج السادس ، وحضر الدكتور اديناور ، مستشار حكومة المانيا الغربيـة الى لندن للاشتراك في الجنازة ، وقد اجتمع بايدن اجتماعاً خاصاً بعد ١٠ أيام من الجنازة ، وجرت بعد ذلك محادثات ثلاثية بين وزراء خارجية انجلترا وامريكا وفرنسا ، بخصوص شؤون الامن الاوربي ، وقام ايدن بزيارة العواصم الاوربية – بروكسل وبون وروما وباريس – في سنة ١٩٥٤ ، ودعـــا الى مؤتمر في لندن حضره وزراء خارجية فرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرغ

وبريطانيا وكندا والولايات المتحدة ، واعلن ايدن في المؤتمر ان الفرق الانجليزية الاربع الموجودة في المانيـــا ، والقوات الجوية فيها ، لن تسحب ضد رغبات أكثرية دول ميثـاق بروكسل ، وقد اعتبرت نتائج مؤتمر لندن هذا ، نصراً كبيراً لايدن .

وفي تشرين الاول عام ١٩٥٤ منحته الملكة أرفـــع وسام انجليزي – وسام الفروسية المعروف باسم « ربطة الساق » Garter

وكان ايدن قد تزوج في آب عام ١٩٥٢ من كلاريا تشرشل ، ابنة اخ المستر ونستون تشرتشل ، وقد جرت حفلة الزفاف في ١٠ داوننـــغ ستريت ، مقر رئاسة الوزراء ، الذي سيصبح المقر الرسمي للعروسين في المستقبل القريب . وقد قضى ايدن « شهر العسل » في البرتغال .

وشغل ايدن طوال عام ١٩٥٢ بالحرب الكورية ، والـنزاع حول البترول الايراني ، والنزاع بين تيتو وايطاليـــا بخصوص تريستا . وقد بحث ايدن مشكلة تريستا في الخريف مع السنيور دي غاسبري رئيس وزراء ايطـاليا ، في ستراسبورغ ، كما بحث الموضوع مع تيتو في بلغراد . وقد قام تيتو بزيارة لندن في ربيع عام ١٩٥٣ .

وفي آذار ١٩٥٣ ، مرض ايدن مرضاً خطـيراً واجريت له عمليتان فاشلتان في لندن في نيسان ، ثم سافر الى امريكا ، حيث اجرى الدكتور كاتيل العملية له بنجـاح في بوسطون ، وأمضى ايدن فترة من النقاهة والاستشفاء مدتها ثلاثة اشهر ، في امريكا وحوض البحر الابيض المتوسط ، عاد بعدها الى لندن .

وقضى ايدن ايار وحزيران ومعظم تموز من سنة ١٩٥٤ في جنيف ، في المؤتمر الذي كان يبحث مشكلة الحرب الفرنسية في الهند الصينية ، وقد حدث خلاف بينه وبين دالاس ، وزير خارجة امريكا ، «حرد» دالاس على اثره ، وعاد الى بلاده ، وترك الامر الى ايدن ومنديس فرانس ، رئيس وزراء فرنسا الجديد ، وانتهى المؤتمر باقرار انسحاب القوات الفرنسية . وقد اظهر ايدن براعة فائقة في المفاوضات التي ادت الى الوصول الى تسوية نهائية للمشكلة .

تشرشل سيبقى في ١٠ «داونغ ستريت»

ولنعد الآن مرة ثانية الى مصر ، التي يبدو انها كانت خيطاً متصلاً في حياة ايدن ، والتي قضت عليه في النهاية . فقد جرت مفاوضات مستمرة، امتدت سنوات كثيرة ، في عهد حكومات العمال والمحافظين على حد سواء ، لتغيير المعاهدة الانجلو- مصرية التي وقعها ايدن عام ١٩٣٦ ، في عهد حكومة النحاس باشا ، والتي ينتهي اجلها طبيعياً عام ١٩٥٦ .

ففي اوائل نيسان عام ١٩٥٢ ، استدعى ايدن الى لندن السفير البريطاني في مصر ، السير رالف ستيفنسون ، وحاكم السودان ، السير روبرت هاو ، ليبحث معهما في الموضوع . ودعا ايدن كذلك الى عقد مؤتمر في حزيران من نفس السنة ، حضره ممثلون عن ١١ دولة من دول الشرق الاوسط . وفي تموز عام ١٩٥٢ ، قام الانقلاب العسكري في مصر برئاسة اللواء محمد نجيب ، وفي

شباط عام ١٩٥٤ ، تولى السلطة في مصر الرئيس جمال عبد الناصر ، بعد ان نحّى محمد نجيب عن الحكم .

وكان من سياسة ايدن ان تنسحب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس ولذلك قام بتوقيع الاتفاقية المصرية – الانجليزية الجديدة في ١٩ تشرين الاول عام ١٩٥٤ . وقد دافع المستر هيد ، وزير الحربية البريطانية آنئذ عن الاتفاقية التي تقضي بالجلاء عن القناة ، وقال ان الآراء العسكرية التي كانت صالحة قبل عام قد اصبحت الآن « عتيقة » وغير صالحة بالمرة ، بسبب تطور استعمال الاسلحة الذرية .

وقال ايدن أثناء مناقشة الاتفاقية الجديدة في مجلس العموم البريطاني ، ان القوات البريطانية اذا بقيت في منطقة القنال ، فإنها ستكون «حامية محاصرة» ولا تستطيع الحركة ، وأضاف قائلاً ، ان التعويض الذي ستحصل عليه مقابل الجلاء عن القناة ان قواتنا الموجودة فيها الآن، والتي يبلغ عددها ٨٠ ألفاً ستصبح قوات احتياطية متحركة استراتيجية . ولكن ايدن نسي ، ا تناسى ، ان القوات الاحتياطية الاستراتيجية المتحركة تكون عديمة القيمة، اذا لم تكن لديها قاعدة مناسبة ، وبما ان الحكومة البريطانية قد قصرت في بناء ميناء « عميق » في قبرص ، كما انها لم تؤمن لقوات السلاح الجوي البريطاني المطارات الكافية لمواصلاتها فيها ، فقد كان فقدان قاعدة السويس مؤثراً جداً على مركز بريطانيا في الشرقين الادنى والاوسط ، كما سيظهر بعد وقت قصير .

وشفي ايدن من مرضه تماماً ، واخـــذ ينتظر بفارغ الصبر اعتزال السير ونستون تشرشل السياسة ، ليتولى هو رئـــاسة الوزارة ، ويدخل الى ١٠ داونـنـــغ ستريت . وأخذ اصدقاؤه يصرحون علنــاً بضرورة تنحي تشرشل عن الحكم ، وافساح المجال لايدن ، وقالوا ان التأخير في تولي ايدن الحكم ، سيؤثر على همته ونشاطه ، مما سيؤثر حتماً على قدرته في اداء مهامه كرئيس للوزراء . ومن الغريب في الامر ، ان ايدن نفسه كان مستعجلاً لتولي الرئاسة ، مع انـه كان في ربيع عام ١٩٥٥ في الثامنـــة والخمسين من عمره ، ولم يفت عليه الوقت بعد لتولي هـــذا المنصب ، الذي تولاه تشرشل وهو في الخامسة والستين من عمره . ولم يطل انتظار ايدن ، على اي حال ، فقد رفع السير ونستون تشرشل استقالته من الحكم في ٥ نيسان عام ١٩٥٥ . وقد رأى البعض ان تشرشل كان يعتزم تأجيل تقـــديم استقالته ، حتى ينتهي اضراب الصحافـــة القومية ، لأنه لم يكن يريد اعتزال الحكم ، بدون ان تشترك الصحافة بأسرها في تسجيل الحادث ، وتعداد مناقب السياسي العجوز .

ومع ذلك فلم يمر حادث اعـــتزال تشرشل من الحكم دون تعليق ، فقد كتبت الصحف التي كانت تصدر تعليقاتهـا عنه ، وكتبت انا ، رندولف تشرشل ، تعليقاً في جريدة « المانشستر غارديان » اختتمته بالعبارة التالية :

« اما الذين حزنوا لاعتزال السير ونستون تشرشل الحكم ، فقد عزوا أنفسهم بأن الليدي ايدن نفسها هي من اسرة تشرشل ،

وصاروا يقولون بتهكم او بسرور ، سيكون دائماً دم تشرشل في داوننغ ستريت » .

مؤتمر لاقطاب الدول الكبرى كان نصيبه الفشل

اصبح ايدن رئيساً لوزارة بريطانيا ، خلفاً لتشرشل ، في ٦ نيسان عام ١٩٥٥ ، وكان كل انسان تقريباً يتوقع أن يكون ايدن رئيساً ناجحاً للوزراء ، بسبب خدماته الطويلة في الحكم ، وشعبيته الواسعة الانتشار في الداخل والخارج ، ومعرفته وفهمه للرجال والشؤون العامـــة . وعلقت بعض الصحف المحلية والاسبوعية والاجنبية على استقالة تشرشل وتولي ايــدن ، لان الصحافة العامة كانت مضربة ،فكتبت «اليوركشير بوست » انه من حسن حظ بريطانيا ان يوجد زعيم يخلف السير ونستون ، وهو سياسي عالمي حقاً ، وان منزلة بريطانيا ومقدراتها قدبقيت في أيد أمينة . وأضافت تقول ان ايدن سيثبت جدارته بالاحترام في مجلس الوزراء ، وفي مجلس العموم ، وفي البلاد .

أما جريدة « النيويورك هيرالد تريبيون » فقالت ان الصداقة بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامريكية ، قد اصبحت مضمونة في يدي ايدن .

ولما انتهى اضراب الصحافة العامة ، اخذت الصحف تكتب عن الحادث ، فكتبت جريـدة « الصنداي ديسباتش »ان السير انتوني ، دونما ريب ، أقـل كثيراً من السير ونستون ، ولكن

بالرغم من ذلك ، أو حتى بسبب ذلك ، قـــد يثبت انه رئيس للوزراء أفضل من تشرشل بالنسبة لايامــه وعصره . وفوق كل شيء ، فان السير انتوني ايدن يتحلى بالصفة التي كانت تعوز السير ونستون ، وهي ان لا يجعل من ديبلوماسية واعمال بلاده ، مواضيع تثير الكراهيه والارتياب بـــين الآسيويين والغرب والافريقيين .

وأعلن ايدن ، بعد اسبوع من توليه منصب رئاسة الوزراء ، حل البرلمان في ٦ أيار ١٩٥٥ ، واجراء انتخابات عامـة في ٢٦ أيار . وكانت المعركة الانتخابية ، هادئة ، سادها النظام ، وفاز المحافظون فيها بأكثريه ٦١ مقعداً في المجلس . وقد دلت نتائج الانتخابات هذه ، على بداية طيبة ، لايدن وحكومته ، تبشر بفترة زاهرة من الحكم .

وبعـــد يومين من انتصار المحافظين في الانتخابات واجهت الحكومة ازمة داخلية خطيرة ، فقد اعلن عمال السكة الحديد الاضراب في البلاد ، مما جعل الحكومة تعلن حالة الطوارىء . وقد استمر الاضراب مـــدة ١٧ يوماً ، ولكنه سبب اضراراً جسيمة للاقتصاد البريطاني القومي ، وانتهى بعـد ان استجابت هيئة المواصلات البريطانية ، بناء على نصيحة الحكومة الى مطالب العمال ، وقد لعب السير والتر مونكتون وزير العمـل ، دوراً كبيراً في المفاوضات ، التي ادت الى انهاء الاضراب .

وكان السير ونستون تشرشل ، منـذ عدة سنين ، يدعو الى

اجتماع للاقطاب للتفاوض على المشاكل الدولية المختلف عليها ، وكرر تشرشل دعوته أمام مجلس العموم قبل اسبوع من اعتزاله الحكم . وكان خروتشوف قد تولى السلطة في الكرملين ، خلفاً لمالنكوف ،قبل نحو سبعة أسابيع، مما جعل انعقاد مؤتمر الذروة أكثر احتمالاً . وفي اواخر نيسان عـــام ١٩٥٥ ، بدأت الدول الغربية تجري محادثات رسمية فيما بينها ، بخصوص الموقف الذي يجب اتخاذه في مؤتمر الاقطـاب . وفي ١٠ ايار ١٩٥٥ ، اي بعد نحو شهر من تولي ايدن منصب الرئاسة،جددت بريطانيا وامريكا وفرنسا مقترحاتهالموسكولانعقادالمؤتمر، وقبل الروس المقترحات في ٢٦ ايار ، واتفق على انعقـاد مؤتمر الذروة في جنيف في ١٨ حزيران ، تشترك فيه روسيا وفرنسا وبريطانيـــا والولايات المتحدة .

وقد قبل الدكتور ادينـــاور ، الذي زار لندن وواشنطن للتشاور ، عدم اشتراك المانيـــا الغربية في المؤتمر ، مقابل تعهد الغرب له بأن يكون مشروع اعادة توحيد المانيـا ، أهم هدف للغرب في المؤتمر .

وقد كان اصرار الغرب على مشكلة توحيد المانيـــا من اهم الاسباب التي ادت الى فشل مؤتمر الاقطـاب عام ١٩٥٥ . وقد امضى المؤتمر ثـلاثة أيام ، من أيامه الخمسة ، في البحث في هذا الموضوع ، دون التوصل الى نتيجة ايجابية .

وقد بحث الاقطاب في المؤتمر ايضاً ، اقتراح الرئيس ايزنهاور

لنزع السلاح وتشكيـــل هيئة مراقبة جوية مشتركة ، كما جرى البحث كذلك في مواضيع ثانوية ، من نحو ازدياد التبادل الثقافي بين الشرق والغرب ، وموضوع تشجيع حركة السيــاحة بين المعسكرين .

وقد شغلت الصحافة الغربية الرأي العام « بريبورتاجاتها » عن حفلات الطعام التي تبودلت أثنـــاء المؤتمر ، وعن حفلات زوجات ايزنهاور وايدن وماكميلان ودالس وفور - اذ لم يحضر الروس زوجاتهم معهم الى جنيف مع الاسف .. في القوارب في بحيرة جنيف ، مما اوجد لدى الناس شعوراً بالارتياح والاطمئنان. وقد دعا ايدن كلا من بولغانين وخرتشوف لزيارة لندن، لاجراء المزيد من المباحثات الانجلو - روسية . ولم يسفر مؤتمر الاقطاب عام ١٩٥٥ عن شيء ايجابي ، اللهم الا الشيء القليل من تخفيف حدة التوتر الدولي ، وابعاد شبح الحرب الثالثة .

ظهور مشكلة قبرص بشكل خطير

وظهرت في تلك الآونة مشكلة قبرص بشكل خطير ، فقد اتخذت التدابير في اوائل تموز عام ١٩٥٥ ، لعقد مؤتمر في اواخر آب في لندن، يحضره وزراء خارجية بريطانيا واليونان وتركيا، مع مستشاريهم للشؤون الدفاعية ، للبحث في القضايا السياسية والدفاعية الخاصة بشرقي البحر الابيض المتوسط ، بما في ذلك جزيرة قبرص . ولكن اتضح في منتصف تموز ، ان المؤتمر لن يكون مجدياً ، لان مكاريوس ، رئيس اساقفة قبرص ، زار اثينا

في تلك الاثنــاء ، وبيّن للحكومة اليونانية وجهة نظره بوضوح في مؤتمر لندن ، وأعلن مكاريوس ان المؤتمر « فخ » يقصــد منه عدم عرض القضية على هيئة الامم ، واعلن ان الشعب القبرصي لن يقبل بأية قرارات تصـــدر عن المؤتمر ، لا تكون متفقة مع حقوقه وما يتوق اليه ، حتى ولو وافقت عليها الحكومة اليونانية .

ولم يكن بإمكان الحكومة اليونانية ، او قلْ لم تكن تريد ، أن تقف في وجه حركة رجال الدين القبارصة ، ولذلك لم يكن هنالك اي أمل بنجاح المؤتمر .

وبلغ نشاط الحركة الارهابية في ذلك الحين اشده ، تلك الحركة التي ابتدأت في كانون الاول عام ١٩٤٥ ، وازدادت حركة تهريب الاسلحة ، ولم تؤد المقترحات التي تقدمت بهـا بريطانيا لتسوية القضية ، الى اي شيء في سبيـــل تهدئة الوضع . واتضح لدى المسؤولين البريطانيين، ان اتخاذ التدابير الشديدة الحاسمة فقط، يمكن ان يمنع من تحويل الجزيرة الى بركة من الدماء . فحرمت السلطات البريطانية نشاط منظمة « ايوكا » الارهابية ، ولكن ذلك زاد في قوتها وتأثيرها، وازداد مع ذلك عدد القتلى والجرحى من البريطانيين . وفي محاولة للقضاء على حركة الارهاب هــذه ، طلب ايدن من السير جون هاردنج ، رئيس هيئـــة الاركان الامبراطورية الذي كان يريد التقاعد ، ان يتولى منصب حاكم جزيرة قبرص، وقائد القوات البريطانية فيها ، وقد قبل هاردنج هذا الطلب ارضاء لخاطر ايدن ، مع انه كان يتطلع الى التقاعد

والراحة بفارغ الصبر .

وقد تمكن هاردنج اثناء فترة حكمه لقبرص من ان لا يجعل حوادث العنف والارهاب تفلت كلية من يده ، وذلك بقيادته الحازمة ، ولكنه مع ذلك لم يتمكن من القضاء نهائياً على الحركة بسبب تأييد مكاريوس ورجال الدين القبارصة لأيوكا ، روحياً ومادياً . وكان هاردنج يعرف تماماً دور مكاريوس في الحركة ؛ ولكنه ظل « يسايره » . ولم يلجأ الى نفيه الى جزيرة « سيشل » في آذار عام ١٩٥٦ ، الا بعد ان فشلت جميع المحاولات للتفاوض ؛ وقام هاردنج بهذا العمل ، حفظاً لأمن وسلامة الجزيرة .

وفي تلك الاثناء ايضاً ، كانت الاوضاع الاقتصادية البريطانية ، تسير من سيىء الى اسوأ ، وصارت الحكومة تعاني من أزمة مالية كبيرة ، حتى اضطرت في ٢٦ تشرين الاول عام ١٩٥٥ ، الى اعلان ملحق للموازنة لتغطية العجز ، ولجأت الحكومة الى زيادة ضرائب البيع ، ورسوم البريد وغير ذلك من الاجراءات المالية لمواجهة الازمة .

وفي نهاية عام ١٩٥٥ ، أجرى ايدن تعديلاً في وزارته ، فنقل المستر ماكميلان ، الذي كان وزيراً للخارجية ، الى وزارة المالية ، خلفاً للمستر بتلر ، وعين المستر سلوين لويد وزيراً للخارجية خلفاً لماكميلان . وأخذ ماكميلان وزير المالية الجديد ، يتخذ الاجراءات لمنع تفاقم التضخم المالي ، فأعلن في شباط عام ١٩٥٦ زيادة عمولة البنك من ٤،٥ في المائة الى ٥،٥ في المائة ، كما زاد الضرائب على السجاير ، وعلى

ارباح الشركات ، بالاضافة الى اجراءات مالية اخرى . وكان لهذه الاعمال كلها ، تأثير سيء على ايدن وعلى حكومته ، واخذ ايدن وحكومته يتعرضان الى انتقادات شديدة. ولم تقتصر حملة النقاد هذه على صحف المعارضة وحدها وانما اشتركت فيها الصحف المعروفة بولائها الدائم للمحافظين، فقد هاجمت صحيفة « الديلي تلغراف » في عددها الصادر في الثالث من كانون الثاني عام ١٩٥٦ ايدن بعنف ، وطلبت من الحكومة المزيد من الحزم في معالجة الامور . واشتركت في الهجوم كذلك جريدة « الديلي ميل » المحافظة ايضاً ، واتهمت الحكومة بفقدان « الارادة » في اعمالها. وسرت الشائعات ، نتيجة لهذه الحملات ، أن ايدن يعتزم الاستقالة من منصب رئيس الوزراء ، وان المستر بتلر سيخلفه ، وانتشرت هذه الشائعات بدرجة كبيرة ، حتى ان ايدن أصدر بياناً من ١٠ داوننغ ستريت ، أعلن فيه ان هذه الاخبار مختلقة ولا أساس لها من الصحة مطلقاً ، كما ان المستر بتلر أعلن في نفس اليوم ، انه لا يعلم شيئاً عن موضوع الاستقالة هذا ، وأعلن انه مصمم على الوقوف الى جانب رئيس الوزراء في وجه الصعوبات التي تواجهه .

حادث في الشرق الاوسط اهتزت له بريطانيا

وتميز شهر نيسان عام ١٩٥٦ بزيارة المارشال بولغانين والمستر خروتشوف الى لندن ، تلبية الدعوة التي وجهها اليهما ايدن في

جنيف في العام الماضي ، وكان « مالينكوف » قد زار بريطانيا قبل بضعة أشهر ، وأستقبله الشعب البريطـاني بحرارة ، ولكن استقبال بولغانين وخروتشوف كان فاتراً ، وذلك لاسباب عدة ، منهـا ان القادة السوفيات ارتكبوا غلطة بارسال رئيس البوليس السري الروسي ، الجنرال سيروف ،مقدماً الى بريطانيا ،ليشترك مع المسؤولين مـن رجال الأمن الانجليز ، في اتخاذ ترتيبات الحراسة للزوار السوفيات ،وسيروف هذا مشهور بقسوته وكثرة سفكه للدماء ، ولذلك استاء الناس كثيراً من مجيئه الى بريطانيا. وقد رأى بولغانين وخروشوف لدى وصولهما الى لندن ، انه من الخير لهما اعادته الى موسكو .

ومن الاسباب الاخرى التي جعلت البريطانيين يستقبلون القادة الروس بتحفظ ، ما نشرته وكالة انباء تاس السوفياتية ، من ان بولغانين وخروشوف أبديا تذمرهما ، قبل ان يغادرا موسكو ، من برنامج الزيارة ، الذي اعدته الحكومة البريطانية لهما ، إذ يبدو انهما كانا يأملان بالاختلاط كثيراً بالشعب البريطاني ، كما فعل مالنكوف من قبل ، الامر الذي راعت الحكومة البريطانيـة عدم وقوعه ، عند اعداد برنامج الزيارة .

وقد تضمن برنامج الزيارة للقادة الروس ، القيام بجولة سياحية في لندن ، وتناول طعام العشاء في ١٠ داوننغ ستريت ، في حفلة رسمية حضرها السير ونستون تشرشل ، وتناول طعام الغداء في دار البلدية ، وزيارة لهارويل ، وحضور حفلة استقبال أقامها طلبة اكسفورد ، وتناول الشاي مع الملكة في قلعة وندسور .

وفي وندسور ، قدم الزائران الهدايا لاعضاء الاسرة المالكة ، حسب العادات الشرقية ، فقدما للملكة دثاراً من فرو السمور ، كما قدما حصانا لزوجها دوق أدنبرة ، ومهراً للامير تشارلز ودبا صغيراً اسمه «نيكي» للاميرة آن ، وقد ارسل نيكي الى حديقة الحيوانات في ريجنت بارك ، لعدم وجود محل لاقامته في قلعة وندسور .

وقام المستر هيو غيتسكل ، زعيم حزب العمال المعارض ، بدعوة الضيوف الروس ، الى حفلة عشاء أقامها لهم في غرفة خاصة في مجلس العموم البريطاني ، وبعد العشاء وجه المستر جورج براون لهما عدة اسئلة محرجة عن حالة بعض الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين ، في بلدان « الستار الحديدي » ، ولم يجب الزعماء الشيوعيون على هذه الاسئلة مطلقاً ، حتى ان خروشوف قال فيما بعد ، انه لو عاش في بريطانيا لكان عضواً في حزب المحافظين ، وليس في حزب العمال الاشتراكي ، وقد سر الجناح اليميني في حزب العمال من اسئلة براون ، بينما استاء اليساريون في الحزب ، من مضايقة اسيادهم الاجانب .

وعقب انتهاء زيارة القادة الروس لبريطانيا ، صدر بلاغ مشترك ، أعرب الجانبان فيه عن تصميمها على اتخاذ جميع الاجراءات الممكنة ، لتمتين الثقة المتبادلة ، وتحسين العلاقات بين الدول ، وتعرض البيان للشرق الاوسط ، فأكد البلدان انهما سيعملان كل ما في استطاعتهما لحفظ الامن والسلام في المنطقة . وسيساعدان الامم المتحدة على ايجاد تسوية سلمية للنزاع العربي الاسرائيلي .

وفي ٢٩ نيسان، أي بعد يومين من مغادرة القادة السوفيات بريطانيا ، اصدرت قيادة البحرية البريطانية بلاغاً ، اعلنت فيه ان الكوماندر ليونيل كراب ، أحـــد « رجال الضفادع » في الاسطول البريطاني ، قد فقد ، وربما لاقى حتفه عندما كان يقوم بعملية «غطس» في خليج سنتكس قرب ميناء بورتسموث، في ١٩ نيسان ، وذكر البلاغ ان «كراب» كان يقـــوم بفحص بعض معدات رجال الضفادع الجديدة . ولكن بعد خمسة أيام ، أي في ٤ أيار ، تلقت وزارة الخارجية البريطانيـة مـذكرة من موسكو جاء فيها ان بحارة السفن الروسية التي كانت راسية في ميناء بورتسموث ، قد شاهدوا أحد رجال الضفادع، في صبيحة يوم ١٩ نيسان على سطح المـاء ، ثم غطس . واحتج الروس في المذكرة ، على هذا الحادث غير العادي ، الذي وقع اثناء قيـام القـــادة الروس بزيارة ودية لبريطانيا ، وطلبوا من الخارجية البريطانية تفسيراً لما وقع .

وقد أثار حادث كراب هذا ضجة كبـيرة في الصحف وفي البرلمان الانجليزي ، وثبت فيما بعد انه كان يحاول الحصول على معلومات عن المدمرة الروسية ، الراسية في بورتسموث ، والتي نقلت بولغانين وخروتشوف الى بريطانيا ، ولكن البحارة الروس كانوا يقظين وقتلوه ، وقد تنصلت الحكومة ، وقيادة الاسطول ، من علمها بالحادث ، وظل الموضوع غامضاً ، اذ لا يعقل ان يقوم كراب بهذه المهمة الخطيرة للغاية ، دون علم المسؤولين بذلك ، وانتهى

الأمر بإرسال الحكومة مذكرة لموسكو ، اعتذرت فيها عن الحادث الذي وقع دون علمها .

طرد كلوب من الأردن كانت بداية نهاية ايدن

في اليوم الاول من آذار عام ١٩٥٦ ، طرد الملك حسين الجنرال جون باجوت كلوب ، من رئاسة أركان الجيش العربي الاردني ، وأخرج كلوب وعائلته من الأردن في نفس اليوم ، بعد أن أمضى في الاردن ربع قرن ، قضى منها خمسة عشر عاماً قائداً للجيش العربي . وقد أقر مجلس الوزراء الاردني في نفس الليلة ، تسريح كلوب من الجيش بعد اجتماع دام سبع ساعات – وكان هذا العمل من العاهل الاردني ، يعني تحطيم السياسة البريطانية في الشرق الاوسط .

أما الاسباب التي حدت بالملك حسين الى طرد كلوب ، فهي أسباب وطنية قومية في الدرجة الاولى ، وبعمله هذا كان الملك يعبر عن أماني ورغبات الشعب الاردني بأسره ، الذي كان ناقماً جداً على وجود كلوب على رأس الجيش العربي . والملك حسين جندي بالفطرة والتمرين ، وقد تلقى قسطاً من علومه العسكرية في كلية « ساندهرست »

العسكرية الملكية ، وكان جلالته يرى رأياً يغاير رأي كلوب باشا فيما يتعلق بالدفاع عن حدود الاردن ، في حالة تعرضه للهجوم ، فقد كان كلوب يرى الانسحاب من الضفة الغربية في حالة وقوع هجوم اسرائيلي عليها بينما كان الملك حسين مصمماً على المحافظة على كل شبر فيها . ومن الممكن كذلك ان يكون العاهل الاردني قد استاء من تعليقات الصحف البريطانية المتكررة ، التي كانت تذكر ان الحاكم الحقيقي في الاردن هو كلوب ، وليس الملك حسين ، وكان هذا هو الموضوع الرئيسي لمقال نشرته صحيفة « اللستريتد » البريطانية الاسبوعية مؤخراً ، ووقعت نسخة من هذا العدد في يد جلالته .

وبدا في لندن ان الحكومة كانت بطيئة في اظهار رد فعلها لدى تلقيها الخبر ، الشيء الذي يدعو الى الغرابة ، لان السياسة البريطانية كانت تتجه منذ مدة طويلة الى المحافظة على التحالف مع الاردن ، الامر الذي كان يعتبر ضرورياً جداً ، خصوصاً بعد ان انسحبت القوات البريطانية من قواعدها في قناة السويس . وكانت بريطانيا قبل أربعة أشهر فقط قد زادت من قيمة المعونة التي كانت تدفعها للاردن ، بحيث أصبحت ١٢ مليون جنيه ، وقد أظهرت بريطانيا بوضوح ، قبل ثلاثة أشهر من طرد كلوب أهمية الاردن في بناء السياسة الدفاعية البريطانية للشرق الاوسط ، حينما أوفدت الفيلد مارشال سير جيرالد تمبلر رئيس أركان القوات الامبراطورية الى عمان ، ليقوم بإقناع الاردن بالدخول في حلف بغداد . ولكن تمبلر فشل في مهمته ، واظهر هذا الفشل

العالم، ان بريطانيا لم تكن تستطيع السيطرة على الاردن حليفتها، وكان ذلك بمثابة خيبة أمل كبيرة للسير انتوني ايدن .

وفي ٢ آذار، أي في اليوم التالي لطرد كلوب، اجتمع ايدن بوزير حربيته، وبوزير الدفاع السير ولتر مونكتون، كما اجتمع بالسفير الامريكي المستر ونتروب الدرتش في اليوم التالي، وذهب بعد ظهر نفس اليوم الى « تشيكرز » مقره الريفي، لقضاء عطلة نهاية الاسبوع .

وعندما وقع حادث كلوب، كان المستر سلوين لويد، وزير الخارجية البريطانية في طريقه لحضور مؤتمر منظمة حلف جنوب شرقي آسيا في كراتشي، ومن غريب الصدف ان لويد كان يتناول طعام العشاء مع جمال عبد الناصر في القاهرة ليلة طرد كلوب، وقد علم لويد بالنبأ من مضيفه أثناء الحفلة، ولم يثن ذلك لويد عن متابعة رحلته في اليوم التالي، وقد نزل في طريقه في البحرين، حيث « رجمه » المتظاهرون بالحجارة .

وفي يوم الاحد، ٤ آذار، ذهب كلوب – الذي وصل من قبرص في اليوم السابق – لمقابلة المستر انتوني ناتنغ، وزير الدولة للشؤون الخارجية، في وزارة الخارجية، قبل ان يذهب في نفس اليوم الى تشيكرز لتناول الغداء، ولقضاء فترة بعد الظهر مع ايدن .

وفي اليوم التالي، ترأس ايدن جلسة لمجلس الوزراء انعقدت لبحث القضية . وفي اليوم الذي تلا الجلسة، ظهرت في « التايمز » رسالتا تحذير لايدن ووزرائه، عبرتا عن استياء

النواب المحافظين في المجلس من الوضع ، فكتب النائب المحافظ جوليان اموري ما يلي :

« ان طرد كلوب من الجيش العربي ، ورجم وزير الخارجية البريطانية في محمية البحرين ، يدلان على افلاس سياسة التهدئة التي تتبعها الحكومة في الشرق الاوسط ، وقد جاء هذان الحادثان ، نتيجة لانسحاب بريطانيا من فلسطين وعبدان والسودان وقناة السويس . ونحن نقترب بسرعة من الكارثة النهائية ، فمن الممكن ان يؤدي تحدي نفوذنا في الاردن ، وفي الخليج الفارسي ، اذا لم نقم باجراءات فورية ، الى تحطيم حلف بغداد ؛ ويصبح بذلك ، تزويدنا بالبترول ، الذي لا نستطيع العيش بدونه ، في خطر مباشر ، كما ان مواصلاتنا مع بلدان الكومنولث تصبح مهددة ، وتنفتح افريقيا باسرها للتقدم الشيوعي ، ولا يمكن انقاذ الوضع ، الا بترك سياسة التهدئة كلية » .

وكتب النائب المحافظ الكابتن ووتر هاوس ما يلي :

« لقد انقضى عهد التأولات ، وعلينا ان نقبل بهذا التحدي في الوقت الذي لا يزال مركز الشيوعية ضعيفاً ، وعلينا ان نظهر للعالم ان هناك نقاطاً لا يمكن ان نتراجع عنها ، او نتساهل فيها » .

واجتمع ايدن في ذلك اليوم بالسفير الاميركي لمدة نصف ساعة ، كما انه استشار بتلر وناتنغ ، كلاً على انفراد . والتأم مجلس الوزراء ثانية في اليوم التالي ، ودعي لحضور الجلسة وزراء

الدولة نائتنغ وردينغ ، ووزير الوقود المستر جونز ، ووزير المواصلات هارولد وانكنسون ، وجرت مناقشة للموضوع في مجلس العموم في ٧ آذار ، تكلم فيها غيتسكل زعيم المعارضة واشار الى الاخطـــار الجديدة التي اصبحت تواجه بريطانيا في الشرق الاوسط نتيجة للأزمة الاردنية . ووقف ايدن متردداً في المجلس وقال :

« يجب ان اذكر امام المجلس ، انني لست في وضع يمكنني من ان اذكر الليلة السياسة التي ستنتهجها الحكومة تجاه الاردن لان الحكومة لم تحط بالامر احاطة كاملة بعد » .

وقد ثارت ضجة عنيفة في البرلمان في وجه ايدن ، لم يتمكن من الصمود امامها ، فاضطر رئيس المجلس ان يتدخل لاعـــادة الهدوء في الجلسة . وجرى تصويت على الثقة بالحكومة في نهاية الجلسة ، ونالت الحكومة ثقة المجلس .

ولكن المناقشة في مجلس النواب اظهرت من ناحية سياسية ، ان بريطانيا قد خسرت الجولة هذه المرة امام العرب ، امـــا بالنسبة لايدن فقد كانت هذه المناقشة بداية « تحطيم » الشخصية التي كان الناس يظنون انه يتحلى بها . لقـد كان طرد كلوب من الاردن في الواقع بداية نهاية ايدن .

تأميم قناة السويس وبدء أزمة الشرق

في ٢٦ تموز عام ١٩٥٦ أعلن جمال عبدالناصر نبأ تأميم شركة قناة السويس ، وقد تلقى السير أنتوني ايدن هـذا النبأ ، أثناء وجوده في حفلة في ١٠ داوننغ ستريت دار الرئاسة ، كان قـد أقامها على شرف فيصـل الثاني ملك العراق السابق . وقـد ضمت تلك الحفلة عدداً من الوزراء ، وكبار القادة العسكريين ، والمستر غيتسكل زعيم المعارضة في مجلس العموم البريطاني .

ولم تكد الحفلة تنتهي حتى عقد ايدن اجتماعاً لبحث الموضوع بحضور بعض أعضاء حكومته وكبار القادة العسكريين ، كما حضره السفير الفرنسي في لندن والقائم بالاعمـال الامريكي . واستمرت المحادثات في هذا الاجتماع حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي .

وكانت امريكا وبريطانيا قد أعلنتا في اليوم الثامن عشر من كانون الاول عام ١٩٥٥ عن عزمهما على تقديم قرض لبناء السد العالي كما وعد البنك الدولي بتقديم قرض آخر ، على ان تقوم

مصر بتحمل باقي النفقات ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه اميركا على استعداد لانفاق الاموال الطائلة للحـــد من انتشار الشيوعية في العالم .

ولكن ظهر جلياً ان مصر لم تكن في وضع اقتصادي يمكنها من دفع نصيبها في المشروع ، في الوقت الذي رهنت فيه ماقيمته ٢٠٠ مليون دولار من القطن قبل ان يزرع، لتحصل على طائرات الميج والدبابات الروسية، ولما اعلنت الحكومة المصرية موازنتها في ٩ حزيران ١٩٥٦ تبين انها رصدت فيها مبلغ ٥٤ مليون جنيه للتسلح ومليونين و ٩٠٠ ألف جنيه للسد العالي فقط .

واثر هذا الوضع المالي تأثيراً سيئـــاً في نفوس الاميركيين ، بالاضافة الى انهم اعتبروا ابتياع مصر السلاح من روسيا بمثابـة ايجاد موطىء قدم للسوفيات في الشرق الاوسط .

وتعرض وزير الخارجية الامريكية الى ضغط كبير في داخل امريكا لسحب القرض المنوي تقديمه الى مصر ، كما ان لجنة القطن في الكونجرس الامريكي ، طلبت عـدم تقديم القرض الى مصر ، لانها ترى ان بناء السد العالي سيزيد في مساحـة الارض المصرية المزروعة قطناً بمقدار مليوني فدان، مما سيؤدي الى انخفاض أسعار القطن العالمية .

على ضوء هذه الاعتبارات قررت امريكا سحب عرضها تقديم القرض لبناء السد ، وقام المستر دالاس في ١٩ تموز عـام ١٩٥٦ بابلاغ هـذا القرار الى السفير المصري في واشنطن . وفي اليوم التالي أعلنت انجلترا ايضاً ، سحب عرضها تقديم قرض لبناء السد

العالي . واعتبر القرار الامريكي بمثابــة تغيير شامل للسياسة الامريكية تجاه مصر ، بعد ان كان المستر دالاس قد اعلن اثناء الجولة التي قام بها في الشرق الاوسط ، ان الشعب الامريكي يعتبر اللواء محمد نجيب من القادة البارزين في العالم الحر في فترة ما بعد الحرب الثانية ، وان الامريكيين معجبون بالشجاعة التي جابه بها المشاكل التي واجهت مصر ، كما قدم المستر دالاس مسدساً الى اللواء نجيب نقشت عليه هذه العبارة :

« هدية الى اللواء محمد نجيب من صديقه دوايت ايزنهاور »

وقال دالاس للواء نجيب : « يجب ان تستعمل هذا المسدس في الدفاع عن نفسك . »

وكان دالاس قد اقتنع اثناء جولته في الشرق الاوسط ، ان اميركا يجب أن تنتهج سياسة ودية تجاه البلاد العربية . وبالفعل سارت اميركا في هذه السياسة طيلة السنتين ونصف السنة التي تلت زيارة دالس للمنطقة ، وكان يشجع دالس على اتباع هـذه السياسة التي لم ترق لبريطانيـا ، المستر جورج ألن رئيس دائرة الشرق الاوسط في الخارجية الاميركية ، والمستر شارلز بايرود سفير اميركا في مصر . ولكن على كل حال لم يأخذ المستر دالس برأي بريطانيا في سياسته تجاه الشرق الاوسط .

وبعد ان اشترت مصر الاسلحة من الكتلة الشرقية رأى دالاس ضرورة التشاور مع بريطانيا لرسم سياسة موحدة للبلدين في المنطقة . وقد غضب دالاس لدخول روسيا الى منطقة الشرق الاوسط كممون للاسلحة ، وأعلن ان مصر بامكانها الحصول على

السلاح من واشنطن .

ولما ازداد تدفق الخبراء السوفيات الى مصر ، قلق دالاس وأخذ يفكر في تغيير سياسته ، ثم جاءت صفقة الاسلحة التشيكية التي جعلته يتخذ قراراً حاسماً بتغيير سياسته ، وكانت اولى اجراءاته نقل المستر بايرود والمستر ألن من منصبيهما الى مناصب اخرى .

أما ايدن فكانت اجراءاته حاسمة على اثر تلقيه نبأ تأميم القناة ، فلم تمض ساعات على انتهاء الاجتماع الذي عقده في دار الرئاسة فور تلقيه النبأ حتى كان يقف أمام مجلس العموم البريطاني ليعلن : رفض الحكومة البريطانية الإجراء المصري ، واعتباره خرقاً للاتفاقيات الدولية وتهديداً لمصالح كثير من الدول . وأيده في ذلك المستر غيتسكل زعيم المعارضة في المجلس والمستر ديفيس ، رئيس حزب الاحرار ، ووقفت الصحافة بأسرها في بريطانيا موقفاً معاضداً لرئيس الوزراء وأبدت استياءها وممانعتها لعمل الرئيس المصري .

واجتمع ايدن بالمسيو بينو وزير خارجية فرنسا والمستر مورفي عن الخارجية الاميركية في ٢٩ تموز ١٩٥٦ وبحثوا في الموضوع ، وظهر للملأ ان الشعبين الانجليزي والفرنسي سيؤيدان اية خطوة تتخذها حكومتا البلدين لايقاف الرئيس المصري عند حده .

وساد الاوساط البريطانية شعور بأن الرئيس جمال عبد الناصر لم يجرؤ على تأميم القناة ، الا لأن بريطانيا لم تقف موقفاً حازماً من تحدي الملك حسين لانجلترا عندما عزل

الجنرال كلوب من رئاسة اركان الجيش العربي الاردني وأقصاه عن الاردن .

وأيد مجلس العموم البريطاني بالاجماع تقريباً أية خطوة حازمة تنوي حكومة ايدن اتخاذها لمعالجة الازمة ، كما طالب المستر غيتسكل زعيم المعارضة الحكومة باستخدام القوة لمعالجة الموقف . وعندما رفع مجلس العموم جلساته في ٣ آب عام ١٩٥٦ كان ايدن يعتقد أن المجلس يؤيده بالاجماع كما ان الامة البريطانية بأسرها تسير وراءه في كل اجراء ينوي اتخاذه .

وبين لحظة واخرى تراجع حزب العمال عن تأييده في استخدام القوة ، اثر اجتماع المستر غيتسكل في ١٤ آب ١٩٥٦ الى ايدن واصرار الاخير على نقل القضية الى الامم المتحدة واصدار بيان يتعهد فيه بعدم استخدام القوة إلا ضمن ميثاق الامم المتحدة ، ولكن ايدن رفض اصدار هذا البيان ، ومنذ ذلك الوقت اتخذ حزب العمال موقف المعارض لسياسة الحكومة في معالجة الازمة بمفردها أو بمساعدة حلفائها .

ملكار : خطة عسكرية لاحتلال القناة

وكان السير أنتوني ايدن ينوي الدخول في حرب من أجل قناة السويس ، منذ اللحظة التي تلقى فيها نبأ تأميم القناة ، ولم يطلع على خطته هذه سوى المستر لويد وزير الخارجية والمستر بتلر حامل أختام الملكة ، والمستر ماكميلان وزير المالية واللورد ساليزبوري ، رئيس مجلس العموم البريطاني ، بالاضافة الى كبار

القادة العسكريين والمستر أنتوني هيد ، وزير الحربية الذي كان يعتمد عليه أكثر من اعتماده على وزير الدفاع السير ولترمونكتن والذي عينه ايدن وزيراً للدفاع بدل السير مونكتن ، قبل بدء عمليـــات السويس باسبوعين فقط ، وقد لعب المستر هيد دوراً كبيراً في اعداد خطط عمليات السويس وتنفيذها .

وجرى نفس الامر في فرنسا ، اذ عهدت قيادة عمليـــات حرب السويس الى رئيس الوزراء موليه وبينو وزير خارجيته وثلاثة وزراء آخرين .

وكان معظم أعضاء الوزارة الفرنسية تنقصهم الخبرة في الشؤون السياسية الهامة وكانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على السير أنتوني ايدن في قيـــادة العملية ، كما انهم كانوا يجلونه ويحترمون آراءه وتوجيهاته .

ويبدو ان بريطانيـــا لم تكن مستعـــدة عسكرياً للدخول في عمليات حربية ، فقد أظهرت التحريات عدم اعداد خطة عسكرية لاحتلال قاعدة القناة مرة ثانية – القـــاعدة التي كانت القوات البريطانية قد جلت عنهـــا مؤخراً – وبدأ القـــادة العسكريون يعملون بسرعة ووضعوا خطة لحملة عسكرية تعرف باسم «هملكار» تقضي بالقيـــام بعمليـــة انزال جنود من الجو في بعض المواقـــع الستراتيجية في منطقة القناة، تتبعها عملية امداد من البحر. ولكنه تبين ان المظليين الانجليز والفرنسيين بحاجة الى تدريب جديد ، لانهم اعتادوا منذ مدة طويلة على القيام بالعمليـــات الحربية على الارض ، بالاضافة الى ان وسائل النقل الجوية اللازمة للقيـــام

بعملية « هملكار » لم تكن متوفرة في الشرق الاوسط او حتى في بريطانيا وفرنسا ، كما ان السفن اللازمة لنقل القوات الى مصر للقيام بعملية انزال بحرية كانت غير متوفرة .

ومن ناحية اخرى لم يكن انشاء القاعدة البريطانية الجوية في قبرص قد اكتمل بعد ، وهي التي كان البريطانيون يعتزمون الاستعاضة بها عن القواعد التي جلوا عنها في منطقة القناة ، لانهم لم يكونوا يعتمدون على قواعدهم الاخرى ، اذ لم يكن الملك حسين يسمح بزيادة القوات البريطانية الموجودة في الاردن ، ثم منعها من القيام بأي نشاط عسكري منعاً باتاً وشل حركتها شللاً كاملاً .

أما الاتفاقية الانجلو ـ ليبية فلم تكن تجيز لبريطانيا استخدام قواعدها في ليبيا للقيام بأية عمليات عسكرية ضد أية دولة من دول الجامعة العربية .

هذا هو الوضع العسكري والاستراتيجي الذي كانت بريطانيا تجابهه عندما كانت تعتزم القيام بحملة السويس . وبدأت رغم ذلك التحركات العسكرية ، واستعدت أساطيل بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط في موانئها ، تنتظر تلقي الأوامر بالابحار ، وصدرت الأوامر الى الفرق العسكرية في بريطانيا بالوقوف على أهبة الاستعداد للتحرك في خلال ٢٤ ساعة من اصدار الامر .

وبدأ نقل القوات البريطانية من بريطانيا في ٧ آب ١٩٥٦ ، حين نقلت بعض الفرق العسكرية الى قبرص ومالطا بطريق البحر والجو . ووضعت الحكومة البريطانية يدها على بعض

السفن والطائرات المدنية لاستخدامها في عمليات النقل العسكرية .

وحاولت بريطانيا تغطية استعداداتهـــا العسكرية بإجراء مفاوضات ديبلوماسية لكسب الوقت . فعقد اجتماع ثلاثي في لندن حضره ايدن وموليه ومورفي ، ثم أجرت الدول الغربيـة الثلاث محادثات اشترك فيها المستر دالاس ، تبعها انعقاد مؤتمر في لندن في ١٥ آب ١٩٥٦ حضره ممثلو ٢٢ دولة تعنيها شؤون القناة . ثم ترأس منزيس رئيس وزراء استراليا بعثة خماسية سافرت الى القاهرة لاجراء مشاورات هناك ، واخيراً اقترح دالاس في ١١ ايلول انشاء جمعية الدول المنتفعة بقناة السويس .

وكان من نتائج المؤتمر الثلاثي ، ان اعلنت بريطانيا وفرنسا تجميد الارصدة المصرية في بلديها ، كما منعتا نقـل أموال الشركة المؤممة والموجودة في الخارج الى مصر ، واعلنت اميركا ايضـاً تجميد أرصدة مصر في بلادها .

ولكن هذه الاجراءات الديبلوماسية ، لم تخف الاستعدادات العسكرية التي كانت تقوم بها بريطانيا وفرنسا ، فلم يعد خافياً على احد ان بريطانيا وفرنسا تستعدان للقيام بعملية حربية ، وهذا الذي اضطر المستر دالاس للسفر الى لنـدن للاشتراك في المحادثات الثلاثية التي أسفرت عن الدعوة الى عقـــد مؤتمر يضم الدول التي تستخدم القنـاة . ولكن المهم في هذه المحادثات ان بريطانيا وفرنسا تبينتا عدم استعداد امريكا لاتخاذ سياسة فعالة معادية لمصر ، كما ان دالاس طلب من السفن الامريكية التي تعبر القناة ان تدفع الرسوم للهيئة المصرية الجديدة .

ولم يبد المستر دالاس حماسة للاستعدادات الحربية التي كانت تقوم بها بريطانيا وفرنسا ، واعلن صراحة في اليوم التالي لعودته الى واشنطن ، انه لا يوافق على هذه الاجراءات العسكرية ، وان امريكا سوف لا تورط نفسها في النزاع القائم حول السويس ، حتى ولو فشل المؤتمر المنوي عقده .

وانعقد المؤتمر في ١٦ آب في قصر لانكستر في لندن وحضرته ٢٢ دولة ، وتخلفت مصر واليونان عن حضوره ، وقد تبنى كل من المستر شبيلوف وزير خارجية روسيا والمستر كريشنا مينون وزير الدولة الهندي ، الدفاع عن مصالح مصر التي لم تحضر المؤتمر .

وفي النهاية نجح دالاس في اقناع المؤتمر باصدار قرار ، عارضته روسيا واندونسيا وسيلان والهند ، وهو يقضي بأن يتولى مكتب دولي ادارة القناة وتحصيل الرسوم ، وبعبارة اصح يقوم باعمال الشركة السابقة بصورة موقتة .

وارسلت الدول الثماني عشرة ، التي وافقت على القرار ، اللجنة الخماسية برئاسة المستر منزيس رئيس وزراء استراليا الى القاهرة لايضاح القرار الى الحكومة المصرية ، ولكنه عاد من القاهرة بعد ان مكث فيها مدة ٦ ايام ، لم يحرز خلالها اي تقدم في مباحثاته .

انتصار مؤقت تبعه انهيار عصبي وخيبة أمل

ظن السير انتوني ايدن ان اقتراح المستر دالاس ، الذي

يقضي بانشاء جمعية المنتفعين بالقناة ، سيجعل اعضاء هذه الجمعية يتكاتفون معاً ويعملون على عبور قناة السويس بالقوة ، اذا حاول الرئيس عبد الناصر ان يعرقل الملاحة فيها . ولذلك كان ايدن يبدو واثقاً من نفسه ، حين وقف يخطب أمام مجلس العموم في ١٢ أيلول ، ويعلن ان حكومة مصر تخالف اتفاقية الآستانة عام ١٨٨٨ بشأن القناة : اذا عرقلت بأي شكل من الاشكال أعمال الجمعية .

وقال ان بريطانيا متفقة تماماً مع بقية الدول ، حول الاجراءات الواجب اتخاذها في حالة قيام مصر بعرقلة أعمال الجمعية ، سواء عن طريق الامم المتحدة او عن اي طريق آخر.

وقد صفق النواب طويلاً لخطاب ايدن وتكلم «النائب السير روبرت بوثبي » مبدياً ارتياحه لخطاب رئيس الوزراء ، حيث قال : « شكراً لله سوف لا تتحقق احلام جمال عبد الناصر ، التي طالما رددها في خطاباته » .

ولكن انتصار ايدن لم يدم طويلاً ، ففي اليوم التالي لخطابه أمام المجلس ، حملت أنباء واشنطن تصريحاً للمستر دالاس في مؤتمر صحفي ، حين سأله أحد الصحفيين عن الاجراء الذي ستتخذه اميركا اذا منعت مصر مرور سفن الدول المنضمة الى جمعية المنتفعين بالقناة فقد قال : « في هذه الحالة ستحول السفن الامريكية طريقها عن القناة الى جنوب رأس الرجاء الصالح ، وستساعد الولايات المتحدة الدول الاخرى التي تنوي القيام بنفس العمل ، بتقديم قروض وناقلات بترول ضخمة لها » .

وقد وقع هذا التصريح وقوع الصاعقة على ايدن وحكومته، وقطع الطريق على السياسة التي أعلنها ايدن في اليوم السابق امام المجلس، ولم يبق أمامه الا طريق واحد هو ان يتفق مع فرنسا على ما يجب القيام به.

وانقسم مؤيدو ايدن الى فريقين: فريق يرى احالة الموضوع الى مجلس الامن وفريق لا يرى مطلقاً القيام بمثل هذا العمل. وهنا فقد ايدن سيطرته على اعصابه، ولم يعد يستطيع تحمل مسؤولية القيادة مطلقاً، وصار يبدو دائماً في حالة من الاضطراب والعصبية الظاهرة.

وانعقد في لندن مؤتمر آخر، في ١٩ و ٢٠ أيلول، ووضع المؤتمرون تفاصيل مشروع انشاء جمعية المنتفعين بالقناة، واعلن قيام الجمعية رسمياً في اليوم الاول من تشرين الاول، واعلنت ١٥ دولة انضمامها للجمعية، ولكن انشاءها لم يؤد الى ما كان يريد ايدن، فقد رفضت مصر الاعتراف بها، كما رفضت التعاون معها بأي شكل من الاشكال.

ولم تستطع بريطانيا وفرنسا عمل شيء لمصلحة الجمعية طالما ان الولايات المتحدة، وكثيراً من الدول الاخرى، كانت تدفع رسوم المرور للسلطات المصرية.

ومرت سبعة أسابيع على اعلان تأميم شركة القناة، ووجدت فرنسا وبريطانيا انهما لم تخطوا خطوة واحدة الى الامام، ولكنهما وجدتا نفسيهما في وضع عسكري، يمكنهما من نيل حقوقهما بأيديهما. ولكن الرأي العام في داخل بريطانيا نفسها وفي خارجها

كان قد تغير عما كان عليه حين اعلان تأميم شركة القناة ، لان
مرشدي القناة الجدد اثبتوا مقدرتهم و كفايتهم ، واظهروا للعالم
ان مصر تستطيع تسيير الملاحة بالقناة و القيام بالتزاماتها بموجب
مؤتمر الاستانة عام ١٨٨٨ .

وكانت انتخابات الرئاسة في امريكا تقترب وكان كلما دنا
موعدها ، قل حماس الامريكيين واهتمامهم بحلفائهم الغربيين .
وخاض ايزنهاور معركة الانتخابات وطلب من الامريكيين ان
يجددوا انتخابه على أساس انه «امير السلم» في العالم فخاب ظن
الحكومة البريطانية مرة ثانية .

وكانت تظن ان معركة الانتخابات الامريكية ستجعل
الحكومة الامريكية تقف الى جانب بريطانيا في سياستها تجاه
السويس ، لان الجمهوريين بحاجة الى كسب اصوات اليهود في
ولاية نيويورك .ولكن ايزنهاور وحزبه الجمهوري ضرب بأصوات
اليهود عرض الحائط ، واعتمد على مكانة الحزب واحترامه بين
الجماهير ، وعلى سياسة السلم التي اعلن انه بطلها .

وأمام هذه الظروف اضطر السير انتوني ايدن ، وأجبر معه
حليفته فرنسا ، على احالة القضية الى مجلس الامن ، والمعتقد ان
يكون ايدن قد قصد من هذا العمل ان يلقي آخر سهم في جعبته
قبل اللجوء الى القوة ، وربما اعتقد انه بالامكان كسب امريكا الى
جانب بريطانيا في حالة فشل مجلس الامن في حل القضية . ولكن
احالة القضية الى مجلس الامن كانت على كل حال مجازفة ، فالفيتو
الروسي خطر دائم في مجلس الامن ، ثم ما الذي [illegible]

بريطانيا وفرنسا للتدخل في مصر ، في حالة عدم رضا الدولتين عن قرار مجلس الامن ، سوى هجوم اسرائيلي على مصر .

مخلب القط في العدوان على السويس

ولكن ايدن كان ينظر الى الموضوع من زاوية معينة ثابتة ، كان ايدن على استعداد لمفاوضة مصر ، ولكن على أساس ان تضع بريطانيا نفسها شروط واسس المفاوضات . وكان ايدن يعتقد ان اي تساهل مع مصر ، سيهدد كيان ومصالح بريطانيا ، في افريقيا وآسيا ، ولذلك فقد كان مستعداً ، بل ومصمماً ، على استعمال القوة عند الضرورة .

وكانت وجهة النظر الامريكية ، تخالف تماماً وجهة نظر ايدن ، واعلن دالاس في مؤتمر صحفي ، قبل اجتماع مجلس الامن بثلاثة أيام فقط ، ان السياسة الامريكية تجاه مشكلة السويس ، تخالف السياسة الانجلو – فرنسية ، وأعلن كذلك ان الولايات المتحدة لا توافق مطلقاً على استخدام القوة .

واتسعت الهوة بين الحلفاء الغربيين ، وانعقد مجلس الامن في ٥ تشرين الاول ، وفجأة اصيب ايدن بحمى شديدة أثناء زيارته لعقيلته المريضة في المستشفى ، واضطر ان يبقى في المستشفى ، وجرت معظم مناقشات مجلس الامن بصورة سرية ، واستمر الجفاء قائماً بين لويد ودالاس بسبب تصريح الاخير في ٢ تشرين الاول .

وبعد ثلاثة أسابيع من بدء اجتماع مجلس الامن ، سقط

مشروع القرار الذي اقترحته بريطانيا وفرنسا ، الذي يقضي بأن تدخل مصر في مفاوضات جديدة ، على أساس القرار الذي اتخذته الدول الثماني عشرة في مؤتمر لندن ، وقد سقط هذا المشروع أمام الفيتو الروسي .

وهنا لم يبق امام ايدن وموليه سوى طريق واحد لمعالجة الازمة : التدخل العسكري .

أما المغامرة العسكرية الكبرى التي كان يعدها السير انتوني والمسيو موليه ، فقد فقدت الدافع اليها ، لمهاجمة المستر دالاس لها وللمعارضة التي لقيتها داخل بريطانيا التي صورت للرأي العام ان حرباً كهذه لا يمكن ان يكون لها أي مبرر أخلاقي .

وصدرت الاوامر الى الجنرال كيتلي بالاستعداد للقيام بحملة عسكرية شتوية ، بينما ساءت صحة ايدن في لندن الى درجة تدعو الى القلق ، واشتد الضغط على موليه في باريس للعمل ، حتى صرح امام الجمعية الوطنية بقوله : «انتظروا حتى تشرين الثاني» .

وطار ايدن ولويد الى باريس في ١٦ تشرين الاول ، وأجريا محادثات على غاية من السرية مع موليه وبينو ، ولم يحضر هذه المحادثات احد من المستشارين الديبلوماسيين والعسكريين ، وانما اقتصرت فقط على الوزراء الاربعة .

وقد اثارت هذه المباحثات التي استغرقت ٥ ساعات قلق الرأي العام ، لما اكتنفها من غموض وسرية .

وفي تلك الاثناء ، وبالاضافة الى الاستعدادات العسكرية التي كانت تقوم بها بريطانيا وفرنسا ، كانت الحكومة الفرنسية

تقوم بترتيبات خاصة مع اسرائيل . فقبل شهر من انعقاد الاجتماع الرباعي الآنف الذكر في باريس ، ذهب ممثلان عن وزارة الدفاع الفرنسية الى اسرائيل ، واقترحا على الحكومة الاسرائيلية ، والعسكريين اليهود ، تقديم المساعدة الى اسرائيل في حالة قيام هذه الاخيرة بهجوم على مصر ، وان لا تقتصر هذه المساعدة على تقديم الاسلحة والتأييد الدبلوماسي .

وعاد المبعوثان الفرنسيان الى بلادهما حاملين خطة واسعة النطاق . وكانت هذه الخطة تقضي بأن يقوم سلاح الجو الفرنسي بدعم الهجوم الاسرائيلي ، كما يقوم الاسطول الفرنسي بحماية الشواطىء الاسرائيلية من الهجمات المصرية ، على ان تدعم العملية الفرنسية – اليهودية بتدخل انجلو – فرنسي مباشر ، بشكل هجوم جوي ، وانزال الجنود في الاراضي المصرية .

وقد حدد موعد يقع في اوائل تشرين الثاني لتنفيذ هذه الخطة .

وبعد بضعة ايام أبلغت فرنسا بن غوريون ، ان على اسرائيل ان تشرع في عملياتها العسكرية في اواخر تشرين الاول « في وقت تكون الحكومة الامريكية فيه منشغلة جداً بانتخابات الرئاسة بحيث لا تتمكن من القيام بأي عمل » . وعندما أبدى بن غوريون شيئاً من التحفظ حول موعد بدء العمليات قال المبعوث الفرنسي إما ان يكون هذا التاريخ – اولا يكون هجوم ابداً . ولما قال بن غوريون « هل اعتبر هـذا انذاراً » ؟ كان الجواب « اذا شئت فاعتبره كذلك » .

من هذا يتبين بوضوح ان بريطانيا وفرنسا لم تستطيعا ايجـاد
اي مبرر سياسي للقيام بهجوم على مصر ، الا باستخدام اسرائيل
للقيام بهجوم عليها حتى تتخذ الدولتان من هذا الهجوم ذريعـة
للتدخل عسكرياً في مصر .

نزول المظليين اليهود في سيناء

ولم تكن فكرة القيام بعمل فرنسي اسرائيلي ضد مصر جديدة ، فقد جرت محادثات سرية بين فرنسا واسرائيل في مناسبات سابقة عديدة ، للقيام بخطة من هذا القبيل ، اذ كانت العقلية الحاكمة في فرنسا مهيأة للقيام بعمل كهذا ، لأن فرنسا كانت تشعر بأن مصر تؤيد الجزائر ، وتمدها بالمال والسلاح ، بالاضافة الى الدعاية . ولذلك ارادت ان تقوم بعمل انتقامي ضد مصر يضعفها من ناحية ، ويؤدي الى وقف المساعدات المصرية لسكان شمال افريقيا الثائرين ضد فرنسا من ناحية اخرى . ولهذا كثر ارسال الاسلحة الفرنسية الثقيلة الى اسرائيل في الفترة التي سبقت حرب السويس ، في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تظهر ترددا في تزويد اسرائيل بالسلاح .

وشرع العسكريون الفرنسيون واليهود في رسم خطط العمليات الحربية منذ اليوم الاول من تشرين الاول ، فقام ممثلو وزارة الدفاع الفرنسية بزيارة اسرائيل عدة مرات ، كما ان موشي ديان رئيس الاركان اليهودي ، قام بزيارة باريس مرتين

خلال شهر تشرين الاول .

هذه الحقــائق تثبت دون ادنى شك ان فرنسا واسرائيل كانتا متواطئتين ومتفقتين على العمل ضد مصر .

وفي نفس الوقت كانت فرنسا دائبة على تنسيق خطة العمل المشترك ضد مصر مع حليفتها انجلــترا ، واحتفظت فرنسا بتكتمها في الخطة الفرنسية — الاسرائيلية ، الى ان علم بهــا المسؤولون البريطانيون من وزراء وعسكريين في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول .

وفي اوائـل شهر تشرين الاول ، وقعت بعض الاشتباكات على الحدود الاردنية — اليهودية مما جعل الدول العربية المجاورة تعرض مساعدات عسكرية على الاردن ، وقد عرضت العراق في ١٢ تشرين الاول استعدادها لادخــال فرقها العسكرية الى الاردن في الحال اذا طلبت الاردن منها ذلك . وفي نفس اليوم قام المستر ويست ليك ، القائم بالاعمال البريطاني في تل أبيب ، باعلام السلطات الاسرائيلية بان الجيوش العراقية على وشــك الدخول الى الاردن ، حيث تعتزم المرابطة الى اجل غير محدود . وحذر السلطات الاسرائيلية من انه في حالة القيام بهجوم ضـد الاردن رداً على دخول القوات العراقية ، فان بريطانيا ستقف الى جانب الاردن بموجب المعاهدة المعقودة بين البــلدين عام ١٩٤٨ ، وبموجب التصريح الثلاثي . وفي اليوم الثاني اعلن سفير اميركا في تل ابيب ان حكومته توافق على مرابطــة القوات العراقية في الاردن .

وقد صدر بلاغ عن مجلس الوزراء الاسرائيلي في ١٤ اكتوبر يعلن عن « قلـق ودهشة » الحكومة الاسرائيلية « للتهديد » البريطاني ، كما انتقد بن غوريون بشدة موقف بريطانيا من مناقشات الكنيست في ١٥ اكتوبر .

وفي اليوم ذاته اتهم الصاغ صلاح سالم في جريدته ، الاقتراح القاضي بإدخال الفرق العراقيـة الى الاردن ، بأنه خطة مدبرة من قبل العراق وانجلـترا واسرائيل ، تقوم بموجبهـا القوات العراقية باحتلال الاردن قبل موعد الانتخابات المنوي اجراؤها في ٢١ اكتوبر. وبعد ساعات من نشر هذا الاتهام أعلنت الحكومة العراقية انهـا لا تنوي في الوقت الحـاضر ارسال قواتها الى الاردن .

وفي اليوم التـالي للاجتماع الرباعي الخاطف في باريس وقف بن غوريون يخطب أمام الكنيست ويعلن أن مصر ماضيـة في تهديد اسرائيل ، وان مصر هي عدو اسرائيل الحقيقي . وقال ان اسرائيل ستخوض المعركة هذه المرة في داخل الاراضي المصرية ، اذا ما هوجمت من قبل مصر .

وفي الساعة الرابعة من ظهر يوم الاثنين في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ أنزلت وحدات من المظليين الاسرائيليين في مكان يبعد ٤٠ ميلا الى الشرق من القنـاة ، قرب (ممر متلا) وقد قصد من هذا الانزال ، أن يكون « طعماً » يجذب القوات المصرية الى صحراء سيناء ، وكانت فرقة من السلاح المصري مزوده بـ ٣٨ دبابة روسية قد انسحبت غرب القناة ورابطت حول « فايد » .

وكان نزول المظليين اليهود يشكل تهديداً استراتيجياً كبيراً للقناة نفسها ، فاخترقت القوات المصرية المرابطة عند « فايد » للقناة شرقاً ، وكانت تأمل ان تسحق المظليين اليهود بسهولة ، ولكن في ليلة ٣٠ – ٣١ تشرين الاول ، انضمت الى فرقة المظليين هذه قوات مسلحة جديدة قدمت من ايلات والكونتيلا.

وفي صبيحة يوم ٣١ اكتوبر دارت رحى معركة جوية كبيرة حول منطقة « ممر متلا » فقد قام المصريون بحوالى ٤٠ الى ٥٠ غارة جوية بطائرات الميج الروسية وطائرات الفامبير الانجليزية ، واستعمل الاسرائيليون في هذه المعارك الجوية طائرات «الميستير» الفرنسية التي زودت فرنسا اسرائيل بـ ٣٦ طائرة منها خلال شهر تشرين الاول فقط .

وكانت الخطة الانجلو – فرنسية الاصلية تقضي ، كما ظهر فيما بعد ، باحتلال الاسكندرية حالاً ، ولكن عندما غيرت هذه الخطة ، فقد استعملت « كخطة تغطية » للعمليات الحربية الجديدة ، ونجحت خطة التغطية هذه الى ابعد حد ، اذ جعلت القوات المصرية تضع أحسن ما لديها من دبابات في الاسكندرية. وكانت النتيجة ان هذه القوات لم تشترك في أية عمليات عسكرية على الاطلاق .

حسناوات تل ابيب يرفهن عن الطيارين الفرنسيين

وتبين ان من بين جميع الخطط الحربية الانجلو – فرنسية لعمليات السويس ، لم تنجح سوى خطة واحدة ، هي

« خطة التغطية » .

أما القوات المصرية التي تحركت من فايد شرقاً ، فانها لم تشترك في أية معركة لأنها عادت وانسحبت الى قواعدها ، عندما وجدت نفسها في وضع عسكري سيء . وهكذا تم للاسرائيليين السيطرة تماماً على منطقة « ممر متلا » في مساء اليوم الاول من شهر تشرين الثاني .

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ، بدأت القوات اليهودية في تنفيذ خطة عسكرية جديدة ، فقد خرج من ايلات في خليج العقبة ، فيلق اسرائيلي آخر ، واتجه جنوباً لاحتلال جزيرتي تيران وصنافير عند مدخل الخليج ، تلك الجزر التي كانت تحول دون دخول السفن ، أو خروجها ، الى ميناء ايلات . وتمكن هذا الفيلق من احتلال الجزيرتين بعد جهد كبير ، اذ كان عليه أن يقضي في طريقه على مركزين مصريين . وكان يرابط في تيران ٤٠ جندياً مصرياً وفي صنافير ١٠ جنود ، تحميهم في ساحل سيناء بطاريتان مصريتان ، ولم يتمكن اليهود من الاستيلاء على الجزيرتين ، الا بعد ان قضوا على المراكز الساحلية نفسها .

وفي الوقت ذاته قرر اليهود تسيير قوة مسلحة آلية من منطقة « متلا » في اتجاه الساحل الغربي الى خليج السويس ، وكانت هذه الطريق معبدة ، ولذلك كان تقدم هذه القوة أسهل كثيراً من تقدم القوة التي اتجهت من ايلات الى الساحل الشرقي ، اذ كانت طريقها وعرة المسالك مليئة بالصخور . وكان على هذه القوة الآلية ان تقضي في طريقها على حامية مصرية صغيرة في (الطور) .

ولتسهيل العملية قام اليهود بانزال وحدة مظلية جنوبي الطور في ٢ تشرين الثاني، مما أدى الى اشاعة الذعر والفوضى في صفوف المصريين ، ومكن القوة الرئيسية اليهودية القادمة من متلا من تطويق القوات المصرية من الخلف .

والتقت القوتان اليهوديتان - القوة القادمة عن طريق الساحل الغربي ، والقوة القادمة عن طريق الساحل الشرقي ، وتمكنتا من احتلال مركزين للمقاومة ، وبذا تمكن اليهود من احتلال الجزيرتين عند مدخل الخليج .

وبينما كانت هذه العمليات العسكرية تجري في وسط وجنوب سيناء ، كانت عمليات حربية اخرى تجري في الشمال ، فقد ترك اليهود أثناء زحفهم جنوباً جيش المشاة المصري الثامن المرابط في قطاع غزة ، ولم يتعرضوا له ، وبعد معركة ضارية عند العريش ، اتجه اليهود غرباً وأخذوا الطريق الساحلي وتابعوا زحفهم في اتجاه جنوبي غربي .

ووقعت أشد المعارك الحربية ضراوة في هذه الحملة بالقرب من « ابو عقيلة » و (القصيمة) ، وكانت القوات الاسرائيلية معززة بحوالى ١٠٠ دبابة أمريكية وفرنسية ، وتابعت تقدمها على الطريق الساحلي ، حيث كانت تطلق نيرانها وهي سائرة في طريقها على الدبابات المصرية التي كانت تزحف شمالا لنجدة القوات المصرية في (أبو عقيلة) .

وتبين للقوات المصرية المتقدمة شمالاً انها في وضع استراتيجي سيىء ، فتحولت ١٠ دبابات روسية منها عن الطريق وعبرت

منطقة الصحراء ، (فغرزت) الدبابات في الرمل ولم تستطع العمل .

واحتل اليهود بعد ذلك قطاع غزة وكان بامكانهم ان يحتلوا كذلك الاسماعيلية ويغنموا الدبابات الروسية الـ ٣٨ التي كانت متروكة هناك ، ولكن الاسرائيليين لم يقوموا بذلك .

وقد اطلق اليهود على العمليات العسكرية في سيناء اسم « قدش » الذي يعيد الى الذاكرة حوادث التوراة القديمة . فعند « قدش » صد ملك « ادوم » موسى وبني اسرائيل ومنعهم من دخول « ارض الميعاد » فتاهوا في سيناء ٤٠ عاماً قبل ان يعيدوا الكرة ثانية .

وهنا لا بد ان نشير الى الدور الذي لعبته فرنسا في حملة سيناء هذه ، فقد وصل الى اسرائيل في الاسبوع الاخير من تشرين الاول سربان جويان فرنسيان قوامهما ٣٦ طائرة من طراز « ميستير » كان يقودها طيارون فرنسيون ، وانضما الى الـ ٣٦ طائرة التي قدمتها فرنسا الى اسرائيل خلال الشهر نفسه .

ولعبت الطائرات الفرنسية هذه ، وكان يقودها طيارون فرنسيون ، دوراً كبيراً في الحرب ، اذ قامت هذه الطائرات بعملية « الحماية الجوية » للقوات اليهودية التي كانت تزحف براً ، بالاضافة الى انها قامت بحماية المدن اليهودية نفسها من غارات الطائرات المصرية . وهذا يثبت دون اي شك التواطوء الذي كان قائماً بين فرنسا واسرائيل ضد مصر ، والذي علمت به بريطانيا رسمياً في ١٠ تشرين الاول عام ١٩٥٦

ووصل مؤلف هذا الكتاب (رندولف تشرتشل) الى تل ابيب في ٧ تشرين الثاني قادماً من نيويورك بطريق لندن وهناك حضر حفلة صاخبة في «فندق دان » أقامتها حسناوات تل ابيب للطيارين الفرنسيين الذين ساهموا مساهمة كبرى في التقدم الذي احرزه اليهود في حملة سيناء .

١٦ ساعة فقط بين بريطانيا والحرب

في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم الثلاثين من تشرين الاول ، كان السير أنتوني ايدن يقف أمام مجلس العموم في لندن ، يعلن للنواب أن القوات الاسرائيلية الزاحفة في سيناء أصبحت قريبة من شواطىء القناة ، وان قتالاً جوياً وبرياً يجري على مقربة من القناة أو عند القناة نفسها .

وبعد ساعات قلائل من مساء اليوم ذاته ، وقف المستر لويد يقول للنواب ، ان التقارير التي وصلتنا تشير الى ان القوات الاسرائيلية موجودة على بعد بضعة أميال من القناة ، وانها ماضية في تقدمها نحو السويس .

ولكن هذا الذي زعمه كل من ايدن ولويد لم يكن صحيحاً ، فقد كانت أقرب القوات اليهودية للقناة ، هي وحدات المظليين التي نزلت عند «ممر متلا» على بعد اربعين ميلا عن القناة ، ولكن الحكومة البريطانية كانت تعطي معلومات خاطئة للنواب وذلك لسببين : اما انها كانت تجهل حقيقة الاوضاع ، أو انها كانت تريد اخفاء الحقائق حفظاً لسلامة الخطط الحربية .

وفي اليوم الاول من تشرين الثاني ، قال المستر أنتوني هيد وزير الدفاع لاعضاء مجلس العموم : « ليست لدينا معلومات مباشرة عن العمليات المصرية – الاسرائيلية . وتشير التقارير الواردة حتى الآن الى ان قوات المظليين اليهود متمركزة على بعد ٢٠ ميلا شرقي القناة » .

وكان ايدن قد أبلغ المجلس في اليوم السابق « ان القوات الاسرائيلية ماضية في زحفها نحو القناة ، ومن الممكن ان تكون بعض الفرق اليهودية قد وصلت الى القناة » .

وقد جعل هذا التناقض في الاقوال الانذار الانجلو – فرنسي الى مصر ، يبدو عملا فيه الكثير من التضليل . فقد وجهت بريطانيا وفرنسا الانذار الى مصر ، وأعلنتا انهما ستعملان ما في وسعهما لوقف العمليات العسكرية المصرية – اليهودية ، كما أعلنت الدولتان عن عزمهما على فصل الفريقين المتحاربين .

ولكن ، وفي نفس اللحظة التي كانت تعلن فيها هذه الكلمات ، كان سلاح الجو الفرنسي يقوم من قواعده في قبرص بانزال البترول والذخيرة والمؤن للقوات اليهودية الزاحفة في سيناء . فهل كان السير انتوني ايدن يجهل حقاً ما كان يجري في قبرص . مستعمرة التاج البريطانية ؟.

كان المفروض في ايدن ان يعلم ذلك ، اذا لم يكن يعلم ، واذا كان ايدن على علم بهذا فلماذا لم يقل الصدق امام المجلس ، عندما نفى بشدة ان هناك تواطئاً بين فرنسا وبريطانيا واسرائيل ؟

وفي صباح اليوم التالي عقد السير انتوني ايدن جلسة للوزارة

ضمت جميع الوزارة البريطانية ، واستغرقت ساعتين ، أحاط خلالها وزراءه علماً بالخطة التي ينوي القيام بها . وحتى موعد انعقاد هذه الجلسة للوزارة البريطانية ، لم يكن يعلم بما كان ايدن ينوي الاقدام عليه ، سوى خمسة من الوزراء هم : لويد وبتلر وماكميلان واللورد ساليزبوري وهيد .

وعندما تلا ايدن نص الانذار الذي كان سيقدم لسفيري مصر واسرائيل ، بعد ساعات قليلة ، ذهل بعض اعضاء الوزارة ، لانهم لم يكونوا يعلمون ان بينهم وبين الحرب مدة ١٦ ساعة فقط وكانوا يشعرون انهم لا يستطيعون بأي شكل من الاشكال التخلي عن مسؤولياتهم الدستورية ، خلال فترة قليلة من الزمن كهذه الفترة . وعندما أبدى أحد الوزراء تذمره من مباغتة ايدن لهم بهذا الشكل ، وعدم اعطاء فرصة لهم للتفكير ، جابهه ايدن قائلاً والغطرسة بادية عليه : « كثير من أعضاء وزارتي الحالية ، لم يسبق لهم ان اشتركوا في وزارة حربية » مما جعل وزيراً آخر يقول للرئيس : « حسناً يا دولة الرئيس ، فنحن لم نكن نعلم اننا في حالة حرب » .

بدء الهجوم الجوي على بور سعيد

وتلا هذه المناقشة الحادة في مجلس الوزراء البريطاني صمت رهيب ، ولكن الوزراء الذين لم يكونوا راضين عن خطط ايدن ، لم يكن بوسعهم عمل شيء في ذلك الوقت فان استقالة الوزارة في الوقت الذي كانت فيه القوات البريطانية البرية والبحرية والجوية في ميادين القتال ، عمل لا يقدم عليه أي انسان « وطني » ، ولم يكن أمام الوزراء الذين كانوا ضد رأي ايدن سوى اربع ساعات على موعد تقديم الانذار اذ ما أرادوا أن يتنصلوا أمام الرأي العام ، من العمل الذي اقدم عليه ايدن باسمهم .

وقدم الانذار الانجلو – فرنسي الى مصر واسرائيل ، وأعلنت اسرائيل قبولها له ، بعد أربع ساعات من تسلمها اياه ، كما جاء جواب مصر بالرفض بعد تسع ساعات . وبدأت بريطانيا هجومها على مصر بعد ١٥ ساعة من ارسال الانذار ، ويرجع سبب تأخر الهجوم البريطاني عن موعده ، الى ان بريطانيا كانت تعلم

ان ١٥ طائرة ركاب أميركيـة ، كانت ستمر في ذلك اليوم من مطار القاهرة، تحمل الرعايا الامريكيين الذين اجلوا من اسرائيل. وكانت الطائرات النفاثة من طراز « كانبرا » قد بدأت حينذاك بالتحليق في الاجواء من مالطة وقبرص ، فصدرت اليها الاوامر بالعودة ثانية الى قواعدها ، حتى يتم مرور الطائرات الامريكية.

وكانت الخطة العسكرية الانجلو - فرنسية تقضي بأن تقوم الطائرات البريطانية والفرنسية بقصف مصر بالقنابل مدة ستة أيام ، قبل القيام بأي غزو . وبدأت الغارات الجوية على مصر. وتمكن سلاح الجو البريطاني من شل حركة سلاح الجو المصري في مدة ٣٦ ساعة .

وكان السير أنتوني ايدن يعتقد ان تحطيم مصر يمكن ان يتم بالقصف الجوي وحده ، ولا حاجة للقيام بعملية غزوها ، ولا ضرورة لان يورط نفسه في عمليات حـربية برية في الاراضي المصرية .

وفي يوم السبت في الثالث من تشرين الثاني ، قـدم المستر أنتوني هيد ، وزير الدفاع البريطاني ، الى قبرص في رحلة تستغرق ١٧ ساعة . وكانت المهمة الموكولة اليه هي أن يتـأكد بنفسه ، وبالتالي ليطلع مجلس الوزراء من بعد، أن الخطط الانجلو-فرنسية قد نسقت من اجل العمل المشترك تنسيقاً تاماً . واجتمع المستر هيد في قبرص صباح الاحد الباكر بالجنرال كيتلي قائد العمليات الانجلو - فرنسية المشتركة ، وبنائبه الاميرال بارجو ، وقد اطلعه القائدان على الخطة وقفل راجعاً الى لندن .

وعندما وصل المستر هيد الى دار الرئاسة في لندن بعد ظهر ذلك اليوم ، وجد المسيو بينو هناك ، وكان قد قدم من باريس في الصباح مصطحباً معه ، ولأول مرة ، وزير الدفاع الفرنسي المسيو بورجيس مونوري .

وقدم المستر هيد لهما ولمجلس الوزراء البريطاني تقريراً وافياً عما شاهده وسمعه في قبرص .

وفي الساعة السادسة والربع من مساء ذلك اليوم تلقى الجنرال كيتلي رسالة من لندن ، تطلب اليه ان يحدد أطول وقت ممكن لاتخاذ قرار بتأخير عمليات الانزال الجوية ، فيما اذ رؤي ان اتخاذ مثل هذا القرار أمر ضروري .

وكان جواب الجنرال «كيتلي» أن أقصى حد هو الساعة الحادية عشر مساء بتوقيت «غرينتش» واضاف الجنرال كيتلي ان تأخيراً كهذا سيؤدي الى نتائج خطيرة جداً ويجب تجنبه بأي ثمن .

وبالرغم من ان السير أنتوني ايدن كان ما يزال متردداً في تنفيذ العمليات الحربية ، ولكنه ، وبعد ان وصلت الامور الى الحد الذي وصلت اليه ، كان مصمماً على العمل مهما كانت النتائج .

وبعيد الساعة العاشرة بتوقيت مصر من صباح اليوم الخامس من تشرين الثاني ، بدأ الهجوم الجوي على بور سعيد وبور فؤاد ، ونجح ٦٠٠ جندي من كتيبة المظلين البريطانيين الثالثة ، مع مظليين من كتيبة اخرى ، في النزول في (مطار الجميل) غربي بور سعيد ، كما تمكن ٥٠٠ من المظلين الفرنسيين من النزول قرب منشآت المياه جنوب المدينة ، وقد لاقت عمليات الانزال

هذه مقاومة شديدة . واستولى المظليون الفرنسيون على المنشآت المائية ، فحققوا بذلك اول هدف من اهدافهم ، ثم شرعوا في التقدم تجاه بور فؤاد ، بينا كان المظليون الانجليز يتجهون نحو بور سعيد بعد أن احتلوا مطار الجميل .

وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر ، اتصل القائد المصري في بور فؤاد ، بقائد المظليين الفرنسيين وطلب اليه الدخول في مفاوضات الوضع شروط التسليم بالنيابة عن حاكم بور سعيد وقائدها العسكري ، وقد احيل طلب قائد بور فؤاد الى الزعيم بتلر ، الذي أصدر في الساعة الخامسة والنصف أوامره بوقف اطلاق النار ريثما تتم المفاوضات الجارية وقد اتفق على شروط التسليم .

احتلال بور سعيد بعد مقاومة عنيفة

وفي نفس الوقت كان المستر سلوين لويد في لندن يجيب على أسئلة النواب في مجلس العموم ، وكانت جلسة المجلس صاخبة جداً ، اذ جابهت المعارضة وزير الخارجية بالانباء التي تلقتها من وزارة الخارجية والتي أفادت بأن راديو قبرص ، قد وجه للمصريين اذاعات معادية فيها كثير من التهديد والوعيد بتدمير القرى المصرية ، وقتل النساء والاطفال والشيوخ والشبان ، اذا لم يجلوا عن قراهم ومدنهم .

ووجد لويد نفسه في موقف حرج أمام النواب وحار جواباً ، فأخذ يردد عبارات « لا علم لي بذلك » و « سأهتم بمثل هذا

الموضوع » وما شاكل ذلك من اقوال .

وقد بلغ السخط بنواب المعارضة أن وقف المستر أنورين بيفان ، أحد زعمائهم ، يصيح في المجلس « ألا تنوي الحكومة الكف عن كذبها أمام المجلس » .

ودخل السير أنتوني ايدن المجلس في تلك اللحظة ، ليقرأ على النواب مضمون رسالة تلقاها من مركز القيادة العليا للعمليات الحربية المشتركة في قبرص ، جاء فيها « ان حاكم بور سعيد وقائدها العسكري يجري الآن محادثات شروط التسليم مع الزعيم بتلر ، وقد صدرت الاوامر بوقف اطلاق النار » .

وفهم المجلس من الرسالة ان اوامر وقف اطلاق النار شملت جميع القطر المصري ، وليس منطقة بور سعيد وحدها . وخفف نواب المعارضة من حدة هجومهم على وزير الخارجية ، بينما ضج النواب المحافظون بالهتاف والتصفيق لايدن .

وقد تراءى لهم في تلك اللحظة من الحماس العارم ، ان جمال عبد الناصر ، وليس حاكم بور سعيد ، هو الذي استسلم . ولكن الصحيح هو ان اوامر وقف اطلاق النار كانت محلية ، وحتى هذه لم يطل أمدها ، اذ بينما كان الحاكم المصري يتقدم لاجراء مفاوضات التسليم مع القادة البريطانيين والفرنسيين ، صدرت أوامر جديدة للقوات المصرية بمتابعة القتال حتى ولو دمرت بور سعيد بأسرها اذا وجد ذلك ضرورياً .

واستؤنف القتال في الساعة الثامنة والنصف من مساء ذلك اليوم ، ولأول مرة كان قاسياً ومريراً ، فقد اخذت السيارات التي

تحمل مكبرات الصوت تطوف شوارع بور سعيد وتصيح بأعلى صوتها : «طائرات الميج الروسية ستصل حالاً ، الصواريخ الذرية الروسية دمرت لندن وباريس ، اشتعلت الحرب العالمية الثالثة» ووزعت الاسلحة في بور سعيد على المدنيين .

واتضح للحليفتين بريطانيا وفرنسا ان القتـــال في شوارع بورسعيد الضيقة سيستغرق وقتاً طويلاً ، وان الخطط المعدة لانزال الجنود من البحر في اليوم التالي ستتعطل ، كما ان المدافع الروسية الجديدة المضادة للدبابات كانت تشكل خطراً كبيراً على القوات البريطانية .

أما القوات الفرنسية فقد تمكنت من احتلال بور فؤاد خلال الليل ، وبدأت تزحف جنوباً نحو الاسماعيلية .

وفي تمام الساعة الرابعة والدقيقة الاربعـين من صباح اليوم السادس من تشرين الثـــاني ، كانت القوات الانجلو ـ فرنسية الرئيسية تنزل من البحر على شواطىء بورسعيد . وقد سبق نزولها الى الشاطىء القاء كميات هائلة من القنـابل من الجو ، كما اطلقت المدمرات البريطانية نيران مدافعها من البحر ، وفي ساعات بعد الظهر دخلت القوات الانجليزية والفرنسية المدينة خلال مقاومـة مصرية عنيفة جداً ، وفي تلك الليـلة تلقت قيادة الحلفاء الاوامر بوقف اطلاق النار .

لم يصدق الجنود الانجليـز والفرنسيون ، كما لم يصدق الرأي العام في البـلدين الانباء التي وردت عن قبول بريطانيا وفرنسا قرار الجمعية العمومية لهيئة الامم بوقف اطـلاق النار ، فقد بدا

ذلك امراً في غاية الغرابة ، اذ كيف تقدم الحليفتان على قبول قرار الجمعية بعد الاستعدادات الطويلة التي قامتا بها ، وبعد ان اصبح النصر النهائي منهما قاب قوسين أو أدنى ؟

وكانت الجمعية العمومية للامم المتحدة قد اتخذت قراراً بوقف اطلاق النار قدمته الكتلة الافريقية – الاسيوية في الرابع من تشرين الثاني ، يدعو جميع الفرقاء المعنيين الى وقف تحركاتهم العسكرية في المنطقة . وقد وافقت على القرار ٥٩ دولة وعارضته خمس دول كما امتنعت ١٢ دولة عن التصويت .

أما الدول التي عارضت القرار فهي بريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندا واسرائيل .

ورغم قوة القرار الذي اتخذته الجمعية بسبب كثرة الدول التي وافقت عليه ، فقد صممت الحكومتان البريطانية والفرنسية على المضي في مغامرتها العسكرية ، بالرغم من الوقع الكبير الذي تركه القرار في نفوس أعضاء الوزارة ، اذ أخذ اربعة من الوزراء على الأقل يبحثون جدياً في موضوع تقديم استقالاتهم ، كما ان سمعة بريطانيا الادبية في العالم تعرضت الى كثير من الانتقاد واللوم . ولكن ، ورغم هذا كله فقد ظلت الحكومتان ماضيتين في غيها واعتداءاتها .

لماذا وافقت بريطانيا على ايقاف اطلاق النار

والواقع ان كلا الحكومتين البريطانية والفرنسية دخلتا الحرب دون ان يكون هناك أي خلاف في الرأي بينهما ولو ظاهرياً ، اذ كانتا تضمان عدداً من الوزراء المعروفين بعنادهم وتصلبهم في آرائهم ، وكان هؤلاء الوزراء لا يرون مطلقاً ، وبعد ان امتشقوا الحسام اثر مداولات ومشاورات استغرقت شهوراً ، اعادة السيف الى غمده ، الا اذا كانت هناك أسباب قاهرة .

فما الذي جعل الدولتين تقبلان بوقف اطلاق النار اذن ، بعد هذا التعنت الذي اظهرتاه وتشددتا به ؟

لقد تضافرت في الواقع اسباب ثلاثة لاتخاذ مثل هذا القرار ، وهذه العوامل هي : التهديد الروسي بالتدخل ، والخلاف الظاهر الذي بدأ في داخل مجلس العموم البريطاني وبين صفوف الشعب البريطاني نفسه ، وهبوط قيمة الجنيه الاسترليني ، الذي كان ينذر بأخطار جسيمة .

هذه الاسباب مجتمعة ادت الى اتخاذ مجلس الوزراء البريطاني قرار الموافقة على وقف اطلاق النار .

ولكن هبوط الجنيه كان العامل المهم ، ذلك ان كثيراً من اعضاء الوزارة ، لم يقلقهم التهديد الروسي واعتبروه مجرد مناورة خداعة ، كما ان الوزارة لم تستطع التغاضي عن ضغط المعارضة في مجلس العموم على الحكومة ، وضغط صحافة المعارضة واثرها في الرأي العام على الحكومة ، اذ ان اغلبية الشعب البريطاني لم توافق على قرار رئيس الوزراء بالتدخل العسكري في مصر .

اما العامل المهم جداً الذي كان له تأثيره على جميع أعضاء الوزارة فهو العامل المالي الذي تعرضت له الخزينة البريطانية .

ففي صباح الثلاثاء في السادس من تشرين الثاني نظر المستر ما كميلان ، وزير المالية ، الى خزينة الدولة قبل ذهابه الى مجلس الوزراء – فبدت له حقائق وارقام مخيفة ، فقد علم ان الجنيه الاسترليني قد بدأ بالهبوط منذ اواخر تشرين الاول ، ولكن هذا الهبوط اخذ يسير بسرعة تدعو للقلق منذ بدء الهجوم على مصر ، حتى وصل الجنيه الى دولارين و٧٨ سنتاً .

ولم يكن في استطاعة بنك انجلترا ان يحافظ على مستوى سعر الجنيه ، الا اذا حصل على كميات كبيرة من العملة الصعبة من الذهب والدولار – وكان البنك بحاجة الى ٣٠٠ مليون دولار على اقل تعديل لانقاذ عمليات ذلك اليوم فقط .

وكانت ارصدة بريطانيا من الدولار والذهب ، قد نقصت في الاشهر الثلاثة الاخيرة نقصاً كبيراً ، وظهر ان هناك عجزاً قدره ٣٢٨ مليون دولار منذ شهر آب وارتفع العجز الى ٢٠٠٠ مليون دولار اثناء عمليات السويس .

وهنا كان لا بد أن تعقد الحكومة البريطانية قرضاً جديداً اما مع صندوق النقد الدولي أو مع أي مصدر آخر ، فاتصل المستر ماكميلان بواشنطن في الساعة الثالثة صباحاً وقال : يجب أن تحصل بريطانيا على قرض في الحال قيمته ١٠٠٠ مليون دولار لانقاذ الجنيه الاسترليني من التدني . وكان المستر جون فوستر دالاس في ذلك الوقت يقضي فترة نقاهة في المستشفى اثر العملية الجراحية التي اجريت له في امعائه ، فانقضى بعض الوقت قبل وصول رد واشنطن .

وفي تلك الاثناء اطلع المستر ماكميلان مجلس الوزراء على وضع بريطانيا المالي المخيف ، وبعد قليل ، وبينما كان مجلس الوزراء منعقداً جاء جواب واشنطن متضمناً ان الولايات المتحدة على استعداد لتقديم القرض ، اذا قبلت بريطانيا بقرار وقف اطلاق النار قبل منتصف الليل .

وجعل هذا الجواب جميع أعضاء المجلس يقتنعون بضرورة الامتثال لقرار الامم المتحدة بوقف اطلاق النار .

وانقذ الجنيه الاسترليني وبقي محافظاً على قيمته (حوالى دولارين و ٧٨ سنتا) التي وصل اليها حتى نهاية أزمة السويس ، اذ وافقت أميركا على أن تضمن الحكومة بالقرض الذي طلبته من صندوق النقد الدولي وقيمته ٥٦١ مليونا ونصف المليون دولار ، كما حولت أمريكا فائدة القرض المستحق لها على بريطانيا في ٣١ كانون الاول لمصلحة بريطانيا . وقيمة هذه الفائدة ١٠٠ مليون دولار ، هذا فضلاً عما قامت به أميركا من دعم القرض الذي

طلبته الحكومة البريطانية منها وقيمته ١٠٠٠ مليون دولار .

هذه هي العوامل الخفية التي عملت على ارغام الحليفتين على الامتثال لاوامر هيئة الامم بوقف القتال ولكن ما هو أثر وقف اطلاق النار؟

اقتراح يهودي رفضته القيادة الانجلو – فرنسية

وماذا كان موقف القوات اليهودية تجاه هذه الاحداث ؟

في الثالث من تشرين الثـــاني ، أي بعد خمسة ايام من بدء الهجوم على سيناء كان اليهود على مسيرة ثلاثة اميال من القناة ، ولم تكن العمليات الانجلو – فرنسية قـد بدأت بعد . فاقترحت القيادة اليهودية ان يرتدي اليهـود اللباس العسكري الفرنسي ويقوموا باحتلال القناة . وتدعي فرنسا بعـــد ذلك ان قواتها قد حققت أحد اهدافها من الحملة .ولكن القيادة الانجلو– فرنسية رفضت هذا الاقتراح ، خشية اتهامها بالتواطؤ مع اسرائيل .

ثم اقـــترح ان تقوم القوات المظليـة الانجلو – فرنسية ، بالنزول خلف المواقع التي تحتلها قواتهم ، ثم تتقدم هذه القوات الانجلو – فرنسية وتحتل القنـــاة ، بينما تقوم القوات اليهودية بالانسحاب . ورفضت القيادة الفرنسية هذا الاقتراح ايضاً خوفاً من اتهامها بالتواطؤ .

واقترحت القوات اليهودية للمرة الثالثة انتقوم هي ، وبسبب مواقعها الاستراتيجية الممتازة ، باحتلال الاهداف الانجلو– فرنسية اي بورسعيد والاسماعيلية والسويس ، مما يشكل منطقة القناة

بأسرها ، ثم تتدخـل القوات الانجلو ـ فرنسية فتقوم القوات اليهودية بتسليمها هذه المواقع .

ورفضت القيادة الانجلو – فرنسية للمرة الثالثة هـــذا الاقتراح .

والسبب الذي جعل الحليفتين ترفضان مقترحات اليهـود الثلاثة هو الانذار الذي قامتا بتقديمه الى مصر واسرائيل ، فقد تظاهرت الدولتان بالغضب في انذارهما نتيجة الهجوم الاسرائيلي ، وطلبتا من مصر واسرائيل التوقف ، فكيف يمكنهما الآن ان تقبلا باقتراحات اليهود ؟

ان ذلك سيفضح صراحة مؤامراتهما وتواطؤهما مع اسرائيل ، وكأن بريطانيا لم تفضح تواطؤها علناً مع فرنسا واسرائيـل ، عندما سمحت للقوات الفرنسية بالقيام بمد اليهود جواً بالمؤن والسلاح من القواعد البريطانيـة في قبرص ، في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تقدم انذارها الى مصر واسرائيل ؟

اذ ربما ظنت بريطانيا أن أمر هذا التواطؤ الاخير لن يفتضح . أما الآن ، وانظار العالم كله متجهة نحو العمليات العسكرية في مصر ، فإن تواطؤاً جديداً سيفتضح أمره في الحال .

لسنا نعلم بالتأكيد العوامل التي دعت الحليفتين الى عدم قبول المقترحات اليهودية ، وقد يتولى السير انتوني ايـدن الكشف عنها في المستقبل عندما ينشر مذكراته ؟.

والآن وقد أوشكت القصة على النهاية ، يجد الكاتب نفسه أمام عدد من المصاعب عندما يحاول أن يبين أوجه الخطـــأ

والصواب في حملة السويس .

فالكاتب، مثله كمثل الكثيرين من الناس، يشعر بأنه مضطر الى أن يغير آراءه التي أعلنها في تشرين الاول عام ١٩٥٦ حول الحملة، واليوم، يعتقد كثير من السياسيين والكتاب ان الحملة كانت خاطئة، مع انهم كانوا يؤيدونها صراحة عام ١٩٥٦ .

فلو اننا نعلم بالسخافة التي اعدت بها الحملة، ولو اننا استطعنا ان نكتشف التدليس والخداع اللذين انطوى عليهما الانذار الانجلو - فرنسي .

ولو أننا علمنا ان الحكومة أخطأت آنئذ في تقدير رد الفعل الاميركي .

ولو أننا علمنا أن الحملة كان يجب أن تترك خلال ٣٦ ساعة نتيجة هذا التقدير الخاطىء .

لو علمنا بهذه الامور لوقف الكثيرون ممن أيدوا الحملة آنئذ غير الموقف الذي وقفوه .

وحتى يومنا هذا، نجد الكثيرين من الناس في جميع انحاء العالم، من الاصدقاء والاعداء على حد سواء، يبدون حيرتهم ودهشتهم ويتساءلون « ألم يكن بامكان الحكومة البريطانية أن تستمر في عملياتها الحربية في السويس مدة أطول حتى لا تضيع ثمار الجهد الذي حققته ؟ » والسؤال الآخر : « ما هي المدة التي كان يجب أن يطيلوا بها أجل الحرب ؟ » .

أما الزعيم بتلر فقد أعلن أن قواته المظلية كان بإمكانها أن تصل الى الاسماعيلية في مدة أقصاها موعد الغداء في اليوم السابع

من تشرين الثاني .

وكان جميع القادة العسكريين الموجودين في ميدان المعركة في مصر ، وليس فقط الزعيم بتلر ، من انكليز وفرنسيين من مثل الجنرال ماسو مثلا ، يعتقدون انه كان بامكانهم الوصول الى مدينة السويس واحتلالها في خلال ٤٨ ساعة .

وقد أكد هذا الرأى بعد اسبوع من موقف اطلاق النار المستمر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية الذي أجاب على سؤال وجهه له أحد الصحفيين الامريكيين في نيويورك عن المدة التي كان الجنود البريطانيون والفرنسيون بحاجة اليها لانهاء العمل كله ، فأجاب يومئذ (٤٨) ساعة فقط (!)

تغيير الخطط العسكرية ١٧ مرة

واذا كان هذا الرأي هو الذي اعطي لمجلس الوزراء ، فلا يعقل ان يكون المجلس قد أمر بالامتثال لقرار وقف اطلاق النار في عملية قضى عدة اشهر يعد لها بعناية وحرص . ولكن يبدو ان وجهة النظر هذه لم تنتقل الى السير أنتوني ايدن وأعضاء وزارته .

فقد أجاب المستر أنتوني هيد وزير الدفاع على سؤال في مجلس العموم في ٥ كانون الاول ١٩٥٦ بقوله : « ان الوصول الى ميناء السويس كان يمكن ان يستغرق سبعة أيام » . ويبدو أن هذا الرأي هو الذي نقل الى ايدن ووزارته ، وليس رأي « الثمانية والاربعين ساعة » (!) عندما أقدمت الحكومة البريطانية على قبول

قرار وقف اطلاق النار .

وهذا يبين أن رأي السياسيين هو الذي اخذ بعين الاعتبار، حين اتخذ قرار وقف العمليات الحربية، وليس رأي العسكريين الانجليز والفرنسيين الموجودين في ساحة المعركة .

وثمة نقطة اخرى تجدر الاشارة اليها الآن ، وهي أن القادة العسكريين البريطانيين كانوا لا يعرفون بالضبط كفاية القوات المصرية ، ضباطاً وجنوداً ونظاماً وتسليحاً .

أما خطة العمليات الحربية فقد كانت ضخمة في المستوى الذي رسمت به وفي السرعة التي نفذت بها ، فقد كان عمل القادة العسكريين نموذجاً للعمل الجدي والمثابرة والصبر الكبيرين . فقد اعدوا مواعيد العمليات والشحن ، كما قدروا النواحي الستراتيجية العسكرية بمنتهى الدقة والاتقان ، ولكن لم يترك لهم حرية العمل، فقد كان السياسيون يتدخلون بين لحظة واخرى في اعمالهم الفنية الصرف ، حتى اضطروا لتغيير الخطة العسكرية التي رسموها لحملة السويس رأساً على عقب .

وكانت الخطة العسكرية التي وضعها القادة العسكريون تتطلب انذاراً مدته عشرة ايام قبل الشروع في العمليات الحربية الفعلية ،وهذا ما آثره العسكريون منذ ان بدأوا يرسمون خططهم في شهر آب ، ولكن تدخل الساسة الدائم في اعمال العسكريين جعلهم يغيرون خططهم ١٧ مرة . كما ان اخطاء كثيرة ارتكبت كان افظعها عدم القيام ببناء ميناء جديد في قبرص ، يستوعب جميع السفن الحربية اللازمة ، او على الاقل

عدم القيـــام بتوسيع احواض الموانىء الموجودة في الجزيرة لتستوعب عدداً كبيراً من السفن .

وقد جعل هذا الامر القادة العسكريين يعتمدون في خططهم الحربية على موانىء الجزائر ومارسيليا ومالطه ، وهذا يعني انه يجب ان تنقضي عشرة ايام بين صدور الامر بالقتال وبين وصول الجنود القادمين بحراً الى البر المصري .

كان بالامكان التغلب على هذه الصعوبة لو ان العسكريين رسموا خطة اخف واسرع واكثر جرأة ومرونة من الخطـــة التي وضعوها .

وقد ابدى احد النقاد الفرنسيين ملاحظة للكاتب تنطبق على الواقع حين قال « يجب ان يتم اعلان الحرب بسرعة » . ولكن الفشل في اتباع خطة كهذه كان خطأ القادة العسكريين وليس السياسيين .

ولقد أساء السير ولتر مونكتون والمستر أنتوني هيد توجيه السير أنتوني ايدن ، فجعلاه يقع تحت تأثير قادته العسكريين . ومهما يكن من امر ، فإن السياسيين يتحملون قسطـــاً من اللوم لانهم بدلاً من ان يحثوا القادة العسكريين على اتباع خطة حربية سريعة حازمة ، اخذوا يضعون العراقيل أمامهـــم كما أظهروا ترددا وابتعاداً عن كل حزم .

ويتحمل السير أنتوني ايـدن جزءاً كبيراً من المسؤولية في هذا المضمار ، لانه لم يكن يستطيـع السيطرة على أعصابه .

ولو كانت القيادة في بريطانيا في أيد حازمة في ذلك الوقت ،

لاتبعت سياسة التقشف والتقتير وتوزيع المواد الرئيسية ، « بالبطاقات » فور اعلان مصر تأميم قناة السويس ، ولتمكنت بريطانيا من مواجهة الأزمة وحالة الطوارىء ، وهي تملك مخزونات ضخمة من المؤن ، ولكان احتياطها من الدولار كبيراً.

هذا بالاضافة الى ان اتباع سياسة كهذه من ناحية نفسية يشعر الشعب البريطاني بما هو مقدم عليه ، وفي نفس الوقت يقدم خير دليل وبرهان للاميركيين على خطورة الوضع .

لا أن اتباع سياسة كهذه كان يمكن ان يجعل الرئيس جمال عبد الناصر يتحقق من هول الضربة التي وجهها لبريطانيا ويشعر بالخطر الذي يتهدده عندما يرى شعباً متحداً غاضباً يهب في وجهه ليوقفه عند حده .

فلو وزع البترول بالبطاقات مثلاً فور اعلان التأميم لكان بيد بريطانيا ورقة رابحة لها أبلغ الاثر منذ البداية . وان اكبر اتهام يوجه للحكومة في ذلك الوقت هو انها ذهبت الى فراشها ونامت وفي يدها تلك الورقة الرابحة ، ثم أبرزت تلك الورقة بعد أن خسرت اللعب .

أما اقدام السير أنتوني ايدن على تغيير عدد من الوزراء الرئيسيين في احرج الاوقات ، وعندما كانت الخطة الحربية في اخطر مرحلة من مراحل الاعداد ، فإنه لم يحسن يومئذ تقدير الوضع العسكري ، ولا الوضع السياسي ، لا أنه لم يكن لذلك العمل أي أثر في رفع معنويات الموظفين العسكريين أو المدنيين .

وسرت الاقوال والشائعات عن ايدن في ذلك الوقت أنه

اصبح رجلاً لا يستقر على رأي ولا يستطيع ضبط أعصابه كما انه كثير التدخل في شؤون الغير ولا يتركهم وشأنهم .

والواقع أن انتوني ايدن ينطبق عليه تماماً ما كتبه عنه أحد الكتاب في ذلك الوقت وجاء فيه : «ان السير انتوني ايدن بطيء جداً في تكوين رأيه ، ولكنه سرعان ما يغير هذا الرأي » .

سقوط مفاجئ بعد ارتفاع تدريجي

وقد أبدى عدد من الوزراء، داخل مجلس الوزراء وخارجه، اعتراضات كثيرة على المراحل المختلفة التي مرت بها الازمة، وفي النتيجة قدم اثنـــان من الوزراء استقالتهما، وهما المستر أنتوني ناتنغ وزير الدولة للشؤون الخارجية، والسير ادموند بويل وزير الخزانة. وقد استقال ناتنـغ في ٣١ تشرين الاول، وبويل في ٤ تشرين الثاني ولكن استقالة الاول اعلنت في ٤ تشرين الثاني كما اعلنت استقالة الثاني في ٦ تشرين الثاني. وقد كتب المستر ناتنغ في كتاب استقالته ما يلي :

« لقد نصحت الحكومة بكل ما اوتيت من قوة بأن لاتتقدم على تنفيذ القرارات والاعمال التي اقدمت عليها، ولا استطيع ان ادافع بأي صورة من الصور عن القرار الذي أقدمت عليـــه الحكومة ».

وهذا الذي كتبه ناتنغ، يبدو غريباً، ويناقض ما كان قد أعلنه في مؤتمر حزب المحافظين قبل ثلاثة أسابيع حين قال :

« اذا لم تقم الامم المتحدة بالواجب الملقى على عاتقها ، فسنقوم نحن بالقيام بواجبنا ، وانني أعتقد أن هذا البلد لن يتقاعس مطلقاً عن العمل اذا ما حزب الامر وجد الجد » .

وكان هناك استقالة اخرى ، أقل في مستواها من الاستقالتين. فقد استقال المستر وليم كلارك مستشار رئيس الوزراء للعلاقات العامة . والمستر كلارك صحفي نشيط قدير ، عمل فترة من الزمن مذيعاً وموظفاً في مكتب الانباء ، كما كان يقوم بوظيفة محرر الشؤون الخارجية في جريدة « الاوبزرفر » خلال السنوات الاربع التي سبقت توليه منصب مستشار الرئيس للعلاقات العامة.

وكان كلارك هذا يحمل آراء المعارضة ، رغم أن عمله في دار الرئاسة ، كان يتعلق بالحكومة وليس له أي علاقة بالدعاية الحزبية .

وكان بعض أصدقاء السير أنتوني ايدن يعتقدون أن تعيين كلارك في منصبه هذا كان تعييناً خاطئاً . فان السياسيين من كلا الحزبين الحاكم أو المعارض يصبحون موظفي الدولة وينسون ، او يجب أن ينسوا ، حزبيتهم السابقة بالمرة ، فمتى أصبح السياسي أحد موظفي الدولة فيجب عليه أن يعوّد نفسه على ان يقوم بتنفيذ واجباته بكل امانة واخلاص بغض النظر عن الحزب الذي يكون في الحكم. وان اي وزير يقوم بتعيين شخص في سلك الخدمة المدنية العامة ، معروف صراحة بأنه من اصحاب الآراء التي تخالف آراء الوزير يقدم على مجازفة ليست ضرورية .

ولنعد الآن للسير انتوني ايدن. فقد انكر ايدن علناً وبصورة

خاصة ، للمقربين من اصدقائه انه كان على علم ســـابق بالهجوم الاسرائيــلي على مصر .

ومع اننا نحب ان نصدق ايدن فيما يقول ، لكننا في نفس الوقت يجب ان نسأل : « لماذا لم يعلم رئيس الوزراء بذلك » ؟ فان من واجب رئيس وزراء بريطانيا الذي يريد ان يورط بلاده في حرب ، أن يكون على علم تام بما يجري حوله . قـد يكون السير انتوني فضل ان لا يعلم بسبب درايته ومرانه السياسي ؟ وعلى كل حال فمن المحتمل جداً ان بعض زملائه الوزراء فضلوا ان لا يكون على علم بذلك ؟

اما التواطؤ بين اسرائيل وفرنسا وانجلترا ، فأمره ظـاهر جلي ، ولا يمكن ان يتطرق اليه أدنى شك . اما ان هذا التواطؤ لم يؤد الى النتيجة التي كانت متوقعة ، فمن الجائز ان يكون سبب ذلك هو عدم علم ايدن به (؟)

ولا يمكن بصورة من الصور ان نلقي ضوءاً واضحاً على اوجه الخطأ والصواب ، في حرب السويس ، الا اذا وضعنـــا نصب اعيننا دائماً ان السير انتوني ايدن كان رجلاً مريضاً طوال مـدة الازمة ، اما مرض ايدن فيرى الكاتب اعتباره مأساة قوميـة بالاضافة الى أنه مأساة شخصية . فمن سوء حظ بريطانيا ان ايدن كان في ذلك الوقت مريضاً . وكان بعضهم مرتاباً فيما اذا كان ايدن يستطيع تسيير دفة الامور أثناء الازمة حتى ولو لم يكن مريضاً ، ولكن ، ومهما يكن من شيء ، فإن ايدن لم يكن اهـلاً لتمثيل الدور الذي كان يريد القيام به وهو مصاب بضعف جسماني .

ولا يستطيع اي انسان ان يقرأ تاريخ حياة ايدن ـ كيف وصل الى القمة بالتدريج، وبعناية وحرص، وكيف سقط فجأة، الا ان يرثي له . ولكن من الخطأ ، بل كل الخطـأ ، ان نجعل حياة فرد، مهما كان عظيماً ، تعادل في الميزان الاضرار الفادحة التي الحقهـا هذا الفرد بأمته ـ فشتان بين مصلحة شخص واحد ومصلحة امة بأسرها .

فهرس

300

هذا الكتاب

ليس المقصود في هذا الكتاب أن نسرد للقارئ جانباً من حياة إيدن ، لأننا لا نظن ان في حياة هذا السياسي المنهار ما يثير اهتمام القارئ في هذه الأيام ولكن الأحداث العالمية الهامة والأسرار والمغامرات السياسية الخطيرة التي رافقت بروز اسم ايدن على المسرح الدولي منذ ابتداء ارتفاعه حتى سقوطه المريع ، هي التي سوف تجتذب اهتمام القراء العرب وعلى الخصوص مغامرة (حرب السويس) الفاشلة التي جلبت الخزي والعار للامبراطورية التي كانت ... لا تغيب عنها الشمس !!

الثمن ٢٠٠ ق . ل .

منشورات المكتب التجاري - بيروت